سيرة أجيال وتاريخ مرحلة بين "رحلة العمر" لمحمد عبد الحميد مِرداد و "سنوات الجوف" لعبد الواحد الحميد دراسة في المضمون والأسلوب

كوثر محمد القاضي *

ملخص

تعد السيرة الذاتية من أكثر أنواع الأدب الذاتي متعة وجذبًا للقارئ، وقد خطت السيرة الذاتية خطوات كبيرة إلى الأمام؛ فقد كانت هناك محاولات كثيرة لكتابتها منذ أوائل القرن العشرين في الأدب العربي الحديث، واختلف البناء الفني فيها، فعلى سبيل المثال سيرة "الأيام" لطه حسين بأجزائها الثلاثة تختلف اختلافًا كبيرًا عن "حياتي" لأحمد أمين؛ فالأول صاغ سيرته في قالب قصصي ممتع سرده بضمير الغائب الذي ناسب الراوي المغيَّب بالعمى واعتزال الناس، ومع تأثُّر أحمد أمين بطه حسين إلا أن سيرته اهتمت بالأماكن والأشخاص والتاريخ أكثر. أما في الأدب العربي الحديث في السعودية فقد لُوحظ في الفترة الأخيرة اهتمام الكتَّاب والكاتبات بهذا النوع من الكتابة، وصدرت كثير من السير الذاتية، بعضها اتكأ على اليوميات والمذكرات، وبعضها الآخر اختبأ خلف فن المراسلات، وبعضها تشظي في مؤلفات كثيرة للكاتب نفسه... الخ. وقد اخترت هنا سيرتين لكاتبين فيهما كثير من التشابه، واخترت سيرة "رحلة العُمر" لمحمد عبد الحميد مِرداد، الأديب والرحالة المكيّ، التي صدرت قبل أكثر من ربع قرن، ولم تحظ بدراسة كاملة تذكر، وسيرة الدكتور عبد الواحد الحميد "سنوات الجوف" وهي أحدث سيرة ذاتية صدرت نهاية العام 2017م ويجمعهما التاريخ وسيرة جيل عاش في فترتين متباعدتين وفي فضاءين مختلفين، وبحثت الدراسة في المضمون والأسلوب لهذين الكتابين بقراءة تبحث عن خصائص الشخصية الساردة التي تتخفى وراء شخصيات كثيرة وأحداث تاريخية عديدة، ولكنها أخرجت للقارئ تاريخ مرحلة وشخصيات مؤثرة وقليل من التفاصيل الخاصة لحياة الكاتبين. وتهدف الدراسة إلى تبيين المرجعية الاجتماعية والتاريخية للسيرتين، من خلال تتبع تلك الموضوعات وأسلوب الكاتبيْن في تناولهما، ورصد مواطن التشابه والاختلاف بينهما، وقد خرجت الدراسة بأن مرجعية المِرداد كانت المشاهدة والمعرفة بالأحوال والأحداث ووصفها عن قرب، وكان عماد هذا العمل: الإنسان المكي والأحداث التاريخية التي دعمها بالكتب والقراءات، أما الحميد، فقد حفلت سيرته بالكثير من الشخصيات، من الأصدقاء والوجهاء، وبالتفاصيل الدقيقة خاصة في مرحلة الطفولة، وعني بالأمانة التاريخية بإيراد الصور والوثائق آخر سيرته. وتحتاج المكتبة العربية حديثًا وفي السعودية خاصة إلى مثل هذه الدراسات؛ حيث كُتبت كثير من السير الذاتية في الأدب السعودي مؤخرًا، كما أن الأدب الذاتي أصبح يشكِّل اهتمامًا لعدد من الباحثين مؤخرًا.

الكلمات الدالة: استباق زمني، ميثاق سيري، تاريخ جيل، الاستباق الاستشرافي، التفريد، المستوى الأفقي، البُعد العام، البُعد الخاص، استطراد، قطع زمن السرد، التقريرات، وجود الراوي داخل النص وخارجه، خط زمني واحد، التأليف الزمني، الانتشار.

المقدمة

"السيرة الذاتية" من فنون الأدب التي وجدت اهتمامًا لدى كثير من الدارسين في النقد العربي الحديث، مع أن ظهور هذا المصطلح يعود لأواخر القرن الثامن عشر، وقد ظهرت النصوص السيرذاتية الأولى قبل فترة طويلة من وضع هذه الكلمة للدلالة عليها. ويذهب الباحثون إلى أن "اعترافات القديس أوغسطين" سيرة ذاتية حقيقية، وإن كانت قد سبقت وضع هذه الكلمة بأربعة عشر قرنًا، وشرع جان جاك روسو في تأليفه السيرذاتي الضخم خلال الستينيات من القرن الثامن عشر، وبدأت الكلمة تستقر بعد عشر سنوات على صدور "اعترافات روسو" ثم بدأت المؤلفات تكثر حتى اصطلح على تسمية هذا النوع من الكتابة بـ "السيرة الذاتية" نهاية القرن الثامن عشر. ويبدو أن سُنَّة السيرة الذاتية في الآداب الأوربية قد أفادت من تطور الفردانيَّة. (ماي، 2011).

وقد حاول فيليب لوجون وضع حدٍّ للسيرة الذاتية، وهو الحدّ الذي يجعل السيرة الذاتية عبارة عن "حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، ذلك عندما يركِّز على حياته الفرديَّة، وعلى تاريخ شخصيته" (لوجون، 1994).

* كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى بمكة المكرمة. تاريخ استلام البحث 2018/9/19، وتاريخ قبوله 2019/3/28.

 © 2019 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

وأرى أنه لا يوجد تعريف جامعٌ مانعٌ لجنس السيرة الذاتية؛ وقد ذهب بعض المختصين في هذا الفن إلى أن ذلك يعود لسببين: الأول يتعلَّق بطبيعة هذا الجنس الزئبقيَّة، والثاني يتعلَّق بتنوُّع المقاربات التي طبّقها عليه الدارسون والنقاد. (الغامدي، 1994م).

بل إنني أزعم أن الكاتبين أنفسهم لا يعرفون الفرق بين السيرة الذاتية وعدد من الفنون الشبيهة به، كالمذكِّرات واليوميَّات والاعترافات، وأرى أن كل سيرة ذاتية هي إضافة أخرى لمضمون هذا الفن الذي لا يمكن أن يكون نقيًّا تمامًا كما أسلفت؛ فالتاريخ جزء لا يتجزأ من السيرة، وهو ما يجمع هذين العملين الذين سأتناولهما بالدراسة في هذا البحث، فقد كُتبا في فترتين تاريخيتين متباعدتين؛ كما أن كثيرًا من المتشابهات تجمعهما: فكتاب "رحلة العُمر" لمحمد عبد الحميد مِرْداد يعدُّ تاريخًا لجيل كامل عاش في مكة في فترة الأربعينيات والخمسينيات والستينيات الهجرية، وكتاب "سنوات الجوف- ذكريات جيل" للدكتور عبد الواحد الحميد هو تاريخ كذلك لجيل كامل عاش في أحد أحياء سكاكا بمنطقة الجوف في الخمسينيات والستينيات الميلادية. وكتاب مِرداد ربما يكون من أقدم الأعمال الأدبية المؤلَّفة في هذا الفن في الأدب العربي الحديث في السعودية، وكتاب الحميد من أحدثها، كما أن كتاب الحميد يكمل الفترة التاريخية وإن كان ذلك في منطقة مختلفة من السعودية. وفي الوقت الذي ينكر الحميد أن يكون كتابه "سيرة ذاتية" كما سيرد لاحقًا، وقد كُتب على الغلاف "ذكريات جيل" يجد القارئ أن مِرداد يكرر في صفحات كثيرة من كتابه أنه "مذكرات" . وأرى أن الكاتبيْن قد تعمدا الهرب من الخوض في تفاصيل شخصيّة بالإكثار من الكتابة عن كثير من الشخصيَّات التي تعرفوا إليها في فترات متباعدة من حياتيهما.وعن المكان الذي أخذ حيِّزًا كبيرًا من المؤلَّفيْن.ويزيد مِرداد على الحميد أنه اهتم في كتابه باللغة والجغرافيا كثيرًا، مما لا يرد لدى الحميد.

أولاً- "رحلة العُمر- المرحلة الأولى" لمحمد عبد الحميد مِرداد:

محمد عبد الحميد مرداد:

ولد في مكة المكرمة في شهر ذي القعدة عام 1332هـ، وعاش طفولته المبكرة في إحدى ضواحي مكة، حيث كانت مرضعته من أهالي "الزيمة" وقد خص هذه الفترة بنصيب وافر من كتابه "رحلة العمر" تلقى تعليمه الأولي في الكُتَّاب، ثم في مدرسة الخياط بالمسعى، بعدها التحق بمدرسة الفلاح التي تخرج فيها عام 1350هـ.

عُيِّن مدرِّسًا بمدرسة الفلاح، ثم بالمدرسة الفخرية لمدة عامين. وفي أوائل عام 1353هـ قام برحلة إلى الهند وبورما وسيلان وسيام (تايلند) والفلبين وجزر الهند الشرقية، ثم رجع إلى مكة واشتغل بالتجارة. وانتدب بعد ذلك مديراً لمدرسة بازرعة في عَدن، وعُيِّن مديرًا للمدرسة السعودية بمكة المكرمة، وأستاذاً خاصًا لصاحب السمو الملكي الأمير منصور بن عبد العزيز -يرحمه الله- ثم استقال وعاد إلى إكمال رحلاته حتى وفاته بالقاهرة -رحمه الله- في السابع عشر من شعبان عام 1415هـ.

آثاره:

1. "إتحاف المسلمين في تسهيل اختصار رياض الصالحين" القاهرة: مطبعة السعادة، 1382هـ/ 1963م.
2. "مدائن صالح" القاهرة: دار الطباعة الحديثة، 1390هـ/ 1970م.
3. "أزهار وأكاليل في تحسين ألفاظ العامة ومعرفة الدخيل" ج1 القاهرة: مطبعة السعادة، 1403هـ/ 1983م.
4. "أشعة الكوكب في حياة الخليفة ابن الزبير وأخوه المصعب" القاهرة: مطبعة السعادة، 1399هـ/ 1979م.
5. "رحلة العمر- الرحلة الأولى" نادي مكة الثقافي الأدبي، مكة المكرمة، تقديم د. عبد الله بن محمد الزيد، عام 1410هـ. (النبذة مختصرة من موقع إثنينية الشيخ عبد المقصود خوجة: (http://alithnainya.com/tocs/default.asp?toc_id=6511&toc_brother=-1

(وقد صدرت طبعة حديثة لهذا الكتاب بعنوان "من باب الدُّرَيْبَة بالمسجد الحرام – رحلة عمر- صورٌ للحياة الاجتماعية بمكة المكرمة في القرن الرابع عشر الهجري" بمقدمة لابنة الكاتب: نوال محمد عبد الحميد مِرداد، عن دار طاشكندي، 1433هـ/2012م . لكني اعتمدتُ على النسخة الأولى في هذا البحث؛ حيث لم أجد اختلافًا إلا في العنوان، كما أن النسخة الأولى نفدت، وتعدُّ نادرة). (الباحثة)

يعد هذا الكتاب السيرة الذاتية الأولى لكاتبه محمد عبد الحميد مِرداد أحد رجال التربية والتعليم في مكة، أو المرحلة الأولى كما كُتب على غلافه، وقد كتب مقدمة له د. عبد الله بن محمد الزيد مدير عام التعليم بالمنطقة الغربية ذلك الوقت. ووعد الكاتب بالمرحلة الثانية، ولكن يبدو أن هذا الجزء لم يصدر أبدًا.

كَثُر في الكتاب ذِكر الأماكن في مكة وما حولها من بلاد وقُرى وبادية؛ وما ذلك إلا لولع الكاتب بالارتحال كما يقول، أما هذه

الوعود بقراءة شيء عن الرحلات، فكما يبدو أن الكاتب –كما أسلفتُ– كان ينوي كتابة مُؤلَّف آخر عن الرحلات يكون الجزء الثاني لهذا الكتاب، الذي هو سيرة ذاتية من الطفولة إلى الشباب.

والسيرة تُروى بضمير المتكلم منذ ولادة الراوي وتنتهي وهو في أوائل مرحلة الشباب على ظهر باخرة ستأخذه إلى أمه وأبيه في إحدى جُزُر جاوه. ولكن في السيرة كثيرٌ من الاستباقات التي يذكر فيها تفصيلات خاطفة عن عمله وزواجه وأصهاره في المستقبل.

وتجب الإشارة هنا إلى الطريقة التي اعتمدها الكاتب في هذه السيرة، وهي السبب الأول وراء ضخامة الكتاب؛ فبناء النص السردي هنا يقوم من خلال تأكيد العلاقة بين النص الحاضر أمام القارئ وكثير من النصوص الشعرية القديمة ومعاجم اللغة وجغرافيا البلدان، من خلال ما يراه في سرد الأحداث وترتيبها، فهو يقطع زمن السرد ويستطرد للشرح والوصف ثم يعود مرة أخرى ويكمل، ثم يقطع زمن القصة ويضع عنوانًا به شرح الكلمات الغريبة والصعبة، ثم يكمل، وأحيانًا يعتذر للقارئ المثقف ويقول إن هذه الشروح هي للعامة من القراء!

والسيرة كلها تدور حول صراع الذات الكاتبة مع الآخر في محاولة مريرة لإثبات الذات المقهورة؛ فهو يشعر بالنبذ قبل أن يولد لأم مريضة لا يعيش لها أولاد، وقد حاولت كثيرًا إسقاط حَمْلها بلا فائدة، يقول:

"وكانت الوالدة –رحمها الله– قد أصرَّت على الإجهاض وعدم الإصغاء إلى النصائح، وظلت مصرَّة في قرارة نفسها على أن لا ترى لها أولادًا يموتون وهي تنظر إليهم ولا تجد لهم علاجًا، وسفَّت ما يُسَفْ وشربت ما يُشْرَب، وكان يعتريها نزيفٌ حاد من جرَّاء ذلك فتُحجم عن المساحيق، ثم تُعيد الكَرَّة..." (مرداد،1410هـ).

ولم يكن بمكة مستشفى سوى مصحَّة إجياد بطبيب واحد لكل الأمراض، وصيدليَّة واحدة في المَرْوة، وكانت القابلات في مكة هن من يُستعان بهن عند الولادة:

"كانت (بيبي فاطمة) قابلة وآسية ولها شهرة عظيمة في مكة وهي من مهاجرات الهند، تتكلم العربية بكلفة شديدة، وكانت قابلة أخرى تنافسها في هذه المهمة تُدعى (لالا عزيزة) وهي من المغرب ولا تنطق إلا باللهجة المغربية" (المصدر السابق).

يولد الراوي في موضع بالقرب من باب الدُّريبة أحد أبواب المسجد الحرام بمكة، في بيت الجد عبد المعطي مِرداد شيخ الأئمة والخطباء في عهده.

ويأخذ السيد شعيب صديق الوالد الراوي إلى المراضِع خارج مكة في قرية "الزَّيمَاء" بين مكة والطائف، ويحكمها "القِناوية" ويضع الوليد لدى كبير القِناوية آنذاك الشيخ فيصل القِناوي، وفي بيته تكون نشأة الراوي البدويَة الأولى، ومن هنا يبدأ نبذ أهله له لاعتقادهم بأنه لن يعيش، يقول السيد شعيب للشيخ فيصل:

"هذا الوليد ضيفكم وأنا غير مسؤول عنه ولا أنتم، فإن قدَّر الله له الحياة فهو ولدكم، وإن كانت الثانية فادفنوه عندكم، وتعلمون الآن أننا في حالة حرْب فلا تنتظروا منا شيئًا، ولا أنا راجعٌ لكم ولا أنا سائلٌ عنه" (المصدر السابق).

وقد كانت ولادته في آخر شهر ذي القعدة الحرام، عام 1332هـ إبان الحرب العالمية الأولى قبل النهضة العربية التي قام بها الشريف الحسين بن علي أمير مكة في شعبان عام 1334هـ.

ومن سمات أسلوب الكاتب الاستباق الاستشرافي للمستقبل بقفزات زمنية كبيرة أحيانًا، ومن هذه إنه يذكر كلامًا لأمه المرضع هيف القِناوية، ثم يقطعه بوصف المكان واستباق:

"تقول مرضعتي هِيف القِنَاوية –رحمها الله– وهي صادقة فيما تقول: إنه اجتمع على ثدييها في ذلك العام أي عام 1332هـ ثلاثة من الوِلدان: أنا ومحسن بن مليح وبنتها فاطمة التي تُدعى (عَجْوَة) التي لا زالت على قيد الحياة إلى الآن أزورها وتزورني، ولها أولاد وبنات...تقول إنها في آخر عام 1332هـ قلَّ لبنها من كثرة الرضع فرحلت بي وبأخي محسن وأختي عجوة إلى (المضيق) وهي ضاحية على مرحلة من الزيماء تقريبًا أو أقل، ويطلق هذا الاسم على مواضع منها مدينة الزباء، وعلى مواضع في قرقيسيا، وعلى قرية بين مكة والمدينة... وعندي في ذلك تعليق يُذكر في موضعه إن شاء الله عندما نكتب عن رحلاتنا العربية أيام الكهولة" (المصدر السابق). وهنا يأتي الاستباق بطريقة ضمنية إيمائية.

ويكتب عن كثير من القُرى التي مرت عليه أثناء طفولته في بلاد الطائف، منها: المَضِيق، وسُولَة، ولقِيم، والمليساء، ورغاف، والصخيرة، وديار بني سالم، وليَّة، وثمالة، والسد السملقي، والشَّفا، والحنو،والخبزة، والهَدَّة وجبل الحبالى... وغيرها. وأحياء الطائف، وأوديتها، وبساتينها، ومحلاتها وسكّانها، ويقطع زمن السرد كالعادة بشرح لغوي لبعض الكلمات امتد لأكثر من عشرين صفحة.

وهو في أثناء ذلك يرصد بعض أحوال مكة:

"اشتد الكرب والغلاء وقلّت الحاجيات من الأسواق في نهاية العام الثالث والثلاثين وفي العام الرابع والثلاثين بعد الثلاثمائة للهجرة حيث كانت نهضة الشريف حسين بن علي أمير مكة من قِبَل الأتراك، إذ انقطعت جميع طرق الحجاز وحوصرت المدن، وكَثُر النهب والسَّلب من قِبَل القبائل الجائعة...وعام النهضة أي العام الرابع والثلاثون كان يضرب به المثل في الجوع والغلاء وقِلة السِّلع من الأسواق، وقد أكل الناس الذُّرة والشَّعير وبعض المدن المحاصرة أكل أهلها لحوم الحمير... وقد كان أهل مكة وجدة والمدينة لا يغادرون مدنهم إلى خارجها حتى عام 1336هـ... والوليد البائس كاتب هذه المذكرات ذهب في خبر كان" (المصدر السابق).

كل هذا القطع لصفحات كثيرة، يقطع السيرورة السردية، ويبعث على الملل لدى القارئ ويقلّل من قيمة القصة؛ فالراوي عندما يترك الحدث الرئيس، ويخرج لهذا الوصف للزمن والتاريخ، يجعل القارئ يعتقد بأن ما يذكره أهم من سيرته، لكنه يعود ليبين أن هذه الظروف السياسية والحياتية الصعبة على أهل المدن قد أثَّرت على حياته، وكوَّنت شخصيته، فالراوي يعيش حياة البدو الرُّحل فيرتحل مع خالته بالرضاع حُسُون إلى بلاد ثقيف وأطراف الطائف وغيرهما، ولكنه كذلك يجد في هذه الرحلات تسلية ومتعة، ومن المتع التي رصدها صعود الجبال وصيد العصافير:

"كنت أهوى التَّرحُل وتسلق الجبال مع أطفال القرية وكانوا يسمون الجبال بالظلعان، وكنتُ أيضًا حاذقًا في صيد العصافير بطريقة الحذف نصب الشَّبك، وكنا نجمع ما نصيده من طير أنا وزملائي الصغار في فناء عشتنا مساءً ثم نشعل النار حولنا ونلقي العصافير فيها ثم نخرجها قبل أن تحترق، فنفركها بأيدينا حتى إذا ما أُزيح ريشها ومناقيرها ازدردناها ازدرادًا كما تلتهم القطط صيدها" (المصدر السابق).

فالطفل الصغير لم يرَ في هذه الارتحالات إلا ما يسليه ويؤنسه، ولكن علق في ذاكرته جبل الحبالى، وهو جبل فيه كهف به رجل تتبرك به النساء العاقرات ويذبحن له ليرزقن بالولد، لكن الخالة لا تخبرهم –هو وإخوته من الرضاع– بخبر الجبل ويعرف ذلك عندما يستقر بالطائف، وهو هنا يقطع زمن السرد، ويذكر زيارته لهذا الجبل بعد أن استقر بالطائف بعد ثلاثين عامًا. ثم يعود إلى زمن رحلته مع الخالة ويكمل القص. (المصدر السابق).

وكان يظنُّ أن الزَّيماء بالقرب من الطائف هي بلده، ولم يكن يعرف أن مكة هي مسقط رأسه، حتى يأتي مجموعة من الرِّجال لأخذه، يصف مشهد الولد البدويّ الذي فوجئ بهؤلاء الأغراب:

"ولأول مرة أسمع هذه الكلمة "شوف يا ولد" وأنا والصِبْيَة لا نفهم كلمة شوف التي تقابل كلمة (عاين) بكسر الياء، يعني انظر بعينك، ولا نفهم كلمة (ولد) بل عامة البادية تستعمل كلمة (وِرْع) بكسر الواو وتسكين الراء ثم العين، وقلت للقائد الصغير: هل هؤلاء من الأعاجم؟ قال: لا، ولكنهم حَضَر، بفتح الحاء والضاد ثم الراء، يعني سكان المُدُن لا نفهم كلامهم، ولا يفهمون كلامنا..." (المصدر السابق). ولابدّ أن المفردة العامية تسهم لديه في إثراء النص الفصيح، فبها تتميَّز منطقة عن أخرى.

وهؤلاء القوم كانوا والده الحقيقي عبد الحميد مِرداد، وصديقاه السيد دحلان والسيد شعيب، أتوا لأخذه بعد أن أصبح في سن السادسة بلا سابق إنذار، ويغادرون، وهكذا كل ثلاثة أشهر كانوا يجيئون ثم يعودون إلى مكة، حتى يحين موعد المغادرة النهائية، فيغادر بصحبتهم وأمه المرضع التي تسكن لاحقًا بحي المعابدة في مكة، "ويقع حي المعابدة شمالي شرق مكة المكرمة، بوادي إبراهيم عليه السلام، ويبعد عن المسجد الحرام 2 كم، وتبدأ حدوده من جسر الحجون إلى بدايات المشاعر على طريق النازل من المسجد الحرام" (أبكر، 2007). وتدعوه لزيارتها كل جمعة.

وبعد ذلك يتميَّز هذا الكتاب بأسلوبه الذي عرَّفه النقاد بـ "التفريد" ويتعلَّق التفريد بالقول تقوله هذه الشخصية أو تلك بحسب لهجتها وتكوينها الاجتماعيّ والثقافيّ". (القاضي، 2010).

وقد اهتم الكاتب كثيرًا بلهجته البدويَّة ولهجة أهل مكَّة الحضرية، التي كَثُر فيها الدخيل، وتبعًا لذلك أخذ يفسِّر الكثير من الكلمات التي تتعلَّق بالأسماء والعادات والأماكن واللِّباس، كما شغف بالموازنة بين اللهجتين لصالح لهجته البدوية، وبين العربية الفصيحة وعامية أهل مكة، وسيرد بعضٌ من ذلك.

والراوي كذلك يعتمد "المستوى الأفقي في الكتابة ويشمل هذا المستوى بُعْدين؛ بُعدًا خاصًا وبُعدًا عامًا، الخاص هو لغة الثقافة والكتابة" (عبد الرحمن، 2008) والعام هو لغة الحوار اليومي الذي يسميه الراوي لغة العامة، وتلك الازدواجية اللغوية هي التي ألجأته إلى شرح الكثير من المفردات وتفسير كثير من الأحداث.

وعندما يصل مكة لم يلحظ سوء المعاملة في الأيام الثلاثة الأولى، وذكر أنها أيام الضيافة:

"وما أن استقر مقامي في دارنا مسقط رأسي بباب الدُّريبة بجانب الحرم المكيّ الشريف، حتى سألت عمَّاتي رحمهن الله تعالى عن والدي ووالدتي، فقلن إنه ينام بالخريق مع بعض زملائهم من أهل السطوح، أما والدتك فهي عند أهلها زعلانة وحامل،

وسترجع بعد الأربعين. ومن عادات أهل مكة أن لا تخرج النفساء حتى تطهر، وعند أهل البادية وبعض الأفريقيين الخروج بعد السابع... وفي الصباح حضر الوالد وأنزلني إلى مجلسه ودلَّلني ولاعبني... وكان عمي قد حضر من مدرسته، وكان العم والوالد موظفيْن بمدرسة الخياط بالمسعى براتب قدره مائة وستون قرشًا عثمانيًا شهريًا، وكان الوالي على مكة هو الشريف الحسين بن علي صاحب النهضة العربية، كما كانا إمامين وخطيبين بالمسجد الحرام براتب قدره سبعون قرشًا ونصف أردب من القمح" (المصدر السابق)

وباب الدُّريبة مسقط رأس الراوي، كان له أهمية كبيرة في ذلك الزمن، وقد ذكره الدكتور بكري شيخ أمين فقال: " أما مدارس العثمانيين الأولى فقد ظهرت بمكة وكان عددها أربعًا وموقعها بين باب الدُّريبة وباب الزيارة للحرم الشريف، وجعلت لتدريس مذاهب الفقه" (أمين، 2002) وباب الزيارة سيأتي ذكره لاحقًا فقد أقام الراوي في إحدى خلواته.

ويبدأ الراوي دراسته في الكُتَّاب، ويذكر د. بكري أن "الكُتَّاب أكثر المواطن شيوعًا بين الناس لتلقي مبادئ العِلم، وإقبالهم عليه كبير، وهذا النمط من المعاهد التعليمية عرفته جميع البلاد التي خضعت للحكم العثماني ومنها الحجاز... وكان فقيه الكُتَّاب لا يُحسن غير التهجِّي والقراءة بطرق ملتوية، والفَلَقَة معلَّقة فوق رأسه، والعصا عن يمينه" (المرجع السابق).

لكن الراوي يدرس عند سيدة تدعى "الفقيهة" وقد شاع ذلك وكان كُتَّاب الفقيهة آشِيَّة من أشهر كتاتيب مكة:

"وفي اليوم الخامس ألبستني عمتي الصغرى ملابس الكُتَّاب، ثم خرجنا إلى خارج الدار وسلكنا طريق الحرم، ثم خرجنا من باب السَّلام فالمروة ثم إلى دار المرحومة الفقيهة (آشِيَّة) ... (نسبة إلى مدينة كبيرة في سومطرة بأندونيسيا رحلتُ إليها في عهد الشباب أكثر من مرة) وهذه المعلمة أصلها من هذه البلدة لكنها من مواليد مكة المكرمة، وكانت دارها بالمَرْوة عبارة عن مدرسة ابتدائية فيها خليط من البنات والأولاد، ويسمونها بمدرسة (أبجد هوز) أو مدرسة التهجئة على الطريقة القديمة، أو كتاب فكاك الحرف بلغة العامة في مكة، وكلمة كُتَّاب (بضم الكاف وفتح التاء المشدَّدة) يعنى بها المدرسة الأولية لتعليم الكتابة والقراءة وفي اليمن يسمون هذه المدرسة (المِعْلامة) بكسر الميم وتسكين العين، ولكل بلد لهجة عامية اصطلاحية عجيبة. والكُتَّاب بالتشديد أفصح من (المِعْلامة)..." (المصدر السابق) وقد ذكر الدكتور بكري كُتَّاب آشِيَّة ولكنه كان يظن أنه خاص بالبنات (المرجع السابق).

ويستطرد مِرداد إلى كثير من التفصيلات الدقيقة لكل ما يحدث في الكُتَّاب، ومهام الطلاب، والعِقاب بالفَلَكة، ثم يبحث عن ما ورد عن الفقيهة في كتب المستشرقين، ويتحدث عن الفقيهات في مكة، وأجورهن التي تتفاوت حسب مستويات أولياء أمور الطالبات والطلاب، ويصف الاحتفالات التي كانت تقام للطالب الذي يختم جزء عمَّ، وعندما يختم الختمة كلها، ويتساءل عن الفقيهات قبل الفقيهة آشِيَّة.

ربما يُستفاد من سيرة مِرداد في هذه الحِقبة الزمنية أكثر بكثير من بعض المراجع المختصة في الحركة التعليمية أو الأدبية في السعودية، بل هو مرجع مهم لكثير من الشخصيات التي عاشت في تلك الفترة وأثَّرت في الحياة الاجتماعية والتعليمية، ومصدر مهم لأحياء مكة القديمة التي أُزيلت حديثًا بعد مشاريع التوسعة للحرم المكي الشريف.

ويُضرب الراوي لأول مرة في الفَلَكة ويعاقب في البيت فيقرر الهرب إلى أمه المرضع بالمعابدة، لكنه يجدها قد رحلت إلى الزِّيمة، فيرحل خلف قافلة متجهة إلى هناك، وهذا الهروب الأول وسيليه عدد من محاولات التمرد والعصيان على أهله بمكة في محاولات لإثبات الذات، والراوي يصف كثيرًا من الأماكن التي مرَّ بها في طريق العودة، فقد أعادته أمه إلى أهله بمكة خوفًا عليه من العقاب، فيعود مرة أخرى إلى الكُتَّاب بعد شفاعة العَمَّة الصغرى له عند الفقيهة، وتبدأ تضربه لتعاقبه على هروبه وعلى أمور أخرى:

"... ثم نادتني كما نادت إحدى البنات من العَرِيفات (بفتح العين) وأمرتها أن تكتب لي (أبجد هوز) وتحفظني وتلقنني، فامتثلت ونفدت الوصيَّة. وكل يوم عَلْقَة بفتح العين وتسكين اللام. أي تعليق رِجليَّ في الفَلَكَة ثم جلدهما بالخيزران – لأني بليد، ولا أعرف كلام العامة ولا لغة الفقيهة. وقد بلغت من العُمر سبع سنين وداخل في الثامنة.. ولكني جامد الفِكر قليل الذكاء. لم أستطع فهم الكلام العامي الحضري ولا (أبجد هوز) ولا (لشيون) بلغة الفقيهة يعني (لا شيء) في الفصحى حتى أني أصررت مرة إصرارًا ونطقتها (لا شيء) فما كان منها إلا الشتم والضرب باللوح على رأسي ثم قالت: انطق كما أنطق حرفًا بحرف وكلمة بكلمة من غير تحريف ولا تفصيح: تعني كالببغاء صورة طبق الأصل" (المصدر السابق).

ويهتم الراوي كثيرًا برصد عادات أهل مكة في مواضع كثيرة من سيرته، ومع ذلك يصفهم بالعوام، فلا يخلو الوصف دائمًا من قوله "العامة" أو "العوام" أو "عامة مكة" ومن تلك العادات التي قد لا يعرفها إلا أهل مكة، الاحتفال ببداية السنة الهجرية:

"ويتكاثر الضيوف في عيد رأس السنة وهي سنة 1340هـ، فأُعرض وأتلهَّى، وكان الناس في مكة يتزاورون بخاصة ذوي القربى والأرحام، ويشربون الحليب صباحًا حتى يتضاعف سعره في ذلك اليوم ومعظم الناس لا يجدونه لتهافت العامة والخاصة

على شرائه قبل طلوع الشمس... والكلام الطيب والمصافحة ولبس الجديد والمصالحة، لاعتقادهم بأن هذا اليوم يجب أن يكون مميَّزًا بالفضائل، حتى تمضي السنة كلها على هذا النمط، وهذا مجرد وَهْم فيما أعتقد...وجاء يوم عاشوراء وجاء الوالد بفاكهة... ومن عادة أهل مكة أن يزور بعضهم بعضًا فيه، وبعضهم يصومون، وبعضهم يعمل العاشورية وهي حلوى لذيذة...كما يهدي بعضهم بعضًا الفاكهة، ويسمون هذا الإهداء أو هذه العادة (التوسِعة) بكسر السين..." (المصدر السابق).

ومن العادات المكِيَّة التي لم يذكرها الراوي أنه في ظهر ذلك اليوم يقومون أيضًا بعادة أخرى مماثلة وهي طبخ الملوخية وأكلها في وجبة الغداء، وهي أيضًا نوع من التفاؤل باللون الأخضر. (الباحثة)

وهذا نموذج لأسلوب "التفريد" الذي سبقت الإشارة إليه، والراوي يعدُّ نفسه شاهدًا على الأحداث، شاهدًا على الشخصيات، شاهدًا على هذا الزمن بكل ما فيه ومَن فيه، لكنها شهادة الفتى البدويّ الغريب والمستضعف في الوقت نفسه، فهو يعزل نفسه دائمًا في الحديث ويحيل إلى الآخر:

"والإصرافة والإقلابة كلمتان عاميتان من اصطناع الفقيهات.. وجاء في الفصحى قلب بمعنى صرف، فنقول: قلب المعلم تلاميذه إذا صرفهم، أما الحفلة التي تقام عند ختم الصبيّ للمصحف، فلم يرد عن العرب استعمال هذه الكلمات في هذه المناسبات، ومن جهة مراد العامة أو مراد الفقيهات من هذه الكلمات للحفلات التي تقام للصبيان عند الختام وفك الحروف، فهذه من العادات التي تستعملها عامة مكة المكرمة، ولكلِّ احتفال اسم عاميّ وأنا لا أحفظ هذه الأسماء ولا أعرف المراد منها... وأنا لا أحفظ عادات مكة وتقاليدها كاملة، إنما القدماء المعمرون هم الذين يحفظونها." (المصدر السابق).

وقد أشار الدكتور بكري إلى هذا الاحتفال كذلك "ومن الأمور المتعارف عليها أنه إذا ختم أحد الطلبة القرآن الكريم، أقام له ذووه حفلة كبيرة في دارهم، ويحضرها شيخ الكُتَّاب، وهو ضيف الشرف، فيطرح صاحب البيت أمام المحتفلين لوحًا، ويلقي عليه هدِيَّته ويفعل الشيء نفسه أكثر الحاضرين" (أمين، المرجع السابق).

ويبلغ التاسعة ولم يستفد شيئًا من كُتَّاب الفقيهة آشِيَّة فيأخذه عمه جمال وصديق والده السيد دحلان إلى مدرسة الخياط بالمَسْعى. وكانت هذه المدرسة من أوائل المدارس بمكة في ذلك العهد، وقد ذُكرت هذه المدرسة في بعض المراجع المتخصصة في السيرة الذاتية، تذكرها الدكتورة عائشة الحكمي التي ترى أن السِيَر الذاتية في السعودية احتفت بالحديث عن المدارس، تقول:

"مدرسة المسعى أو الخياط، كتب عنها أحمد السباعي وأحمد علي، الأول ذكر تميزها عن مثيلاتها في أنها أول مدرسة عربية حكومية، أنشئت أمام باب السلام في عهد الحسين بن علي الذي كلَّف الشيخ محمد الخياط صاحب الكُتَّاب الذي يقع في القبان بإنشائها... وكون الكُتَّاب يتحوَّل إلى مدرسة يعني ظهور تعليم منظَّم وفق أهداف مرسومة" (الحَكمي، 2015).

ويختلط البُعد الخاص بالبُعد العام في الكتابة هنا كذلك ويضمِّن بعض آيات القرآن:

"دخلنا المدرسة وقصدنا الإدارة حيث قابلنا مديرها المرحوم الشيخ عبد الكريم حنفي الذي قال: أهلاً بالشَّرَّاد... ولم يقتنع بأني قد فككت الحرف، وختمت جزء عم، وكتبتُ في اللَّوح، بل أعاد عليَّ الأسئلة المحرجة، فوجدني خالي الذهن ساذجًا بدائيًّا وأفرغُ من فؤاد أم موسى، فنادى العم، وقال: اجعلوه في السنة الأولى في صف الهجاية" (المصدر السابق).

ويستمر الضرب بالفَلَكَة في مدرسة الخياط كذلك، ويتسبب (زنبيل المقاضي) في فشله مرة أخرى يقول:

"ولسوء حظِّي لم أستفد من هذه المدرسة أيضًا، لأن عمِّي مدَّرِس بها وكذلك صهره السيد عبد الرحمن المالكي، ويرجع عدم الاستفادة إلى زنبيل المقاضي وإيصاله إلى الدارين... والمسافة بين المنزلين شاسعة، إذ الأول بباب الدُّريبة والثاني بآخر الشاميَّة... وعند إيصال الزنبيلين تنبت طلبات وحاجات..." (المصدر السابق).

ويستمر الشعور بالغربة وعدم الانتماء لدى الراوي المستضعف من الوالد والعم والعمَّات؛ فقد حُرم رؤية أمِّه الحقيقية وإخوته الحقيقيين، وقيل له إنه من نصيب العمَّات، واستمرت معاملتهم السيئة له، فلا يلقى منهم إلا الضرب مع أنه يقوم بالخِدمة، فلا خادم في ذلك الوقت، وهنا يهرب مرة أخرى إلى أمِّه المرضع في المعابدة، لكنها تعيده إلى العمَّات، ويُحبس فيرتاح من توصيل الطلبات، لكنه يرسب في الاختبار، ويمضي يعدد ما ناله في هذا البيت بعد أن أُصيب بالتأتأة في الكلام بسبب الضرب والتعذيب المستمر:

"... فات الأوان على المذاكرة، فرسبت في الاختبار، وكانت العقوبة كالآتي:

أولاً– عَلْقَة من العم في المدرسة بسبب الرسوب مع أنه هو السبب، بسبب مصالحه وإحضار طلباته السوقية والبيتية...

ثانيًا– عَلْقَة من الوالد عندما سمع بالسقوط ويا لها من عَلْقَة ساخنة...

ثالثًا– حرماني من المرضع ومن زيارتها نهائيًا إذ تصوروا أن الرسوب لم يكن إلا بسببها...

رابعًا– خطبة عمتي الصغرى... وهذه العمة كانت الأم الثانية بعد المرضع ...

خامسًا– وفاة الجَدَّة الكبيرة عمَّة العمَّات، شقيقة جدِّنا المرحوم عبد المعطي مِرداد..." (المصدر السابق).

ويتصدَّع البيت الكبير ولا يجدون مكانًا يبيتون فيه في موسم الحج، فمن عادات أهل مكة تأجير بيوتهم للحجاج، وما زالت هذه العادة موجودة، وهي عادة موسمية خاصة بأهل مكة، لكن عدد الحجاج قلَّ في السنوات الأخيرة، يقول:

"وكان معظم الناس في مكة يسترزقون ويتعايشون ويدَّخرون من إيجارات الموسم على حجاج بيت الله الحرام، وخاصة المدارس والبيوت التي حول الحَرَم، وأخص ما يكون إخواننا الإندونيسيون فإنهم يصلون إلى جدة من جمادى الأولى على متون البواخر ويمكثون بمكة ستة أشهر" (المصدر السابق).

ويكتب الله له الفَرَج عندما يتصدع بيتهم ويلجئون لبيت (خديجة شُرْبة) أو أم المكارم، التي كان بيتها أشبه برِباط للمقطوعات من النساء، من أرامل ومطلقات.ويجد هناك أمًّا أخرى أسماها "الحسناء". والأربطة في مكة المكرمة هي دور يوقفها فاعلو الخير للضعفاء وكبار السن والنساء ممن لا راعٍ لهن. وما زالت موجودة ومنتشرة في مكة حتى الآن. (الباحثة).

وتعلل الدكتورة خلود الحارثي كثرة الأربطة في مكة بقولها:

"تميزت مكة بكثرة أربطتها، ويكون الرباط لإيواء من لا بيت له ولا أهل خاصة النساء، مما يدل على تميز هذا المجتمع وارتباطه الوثيق بالإسلام، لأن هذا الارتباط الوثيق هو الذي دفع بالمجتمع إلى أن يتحسس حاجة المساكين والفقراء، ويُوجد مثل هذه الأماكن وينفق عليها" (الحارثي، 1437هـ).

وكان من مهام ثلاث عجائز في الدار البحث عن عريس للنساء المقيمات فيه، وهذه مهمة عكسية لما هو متعارف عليه من عادات، ويجد الراوي هنا فرصة للحديث عن عادات الخِطبة في مكة، يقول:

"وكانت عادة من يخطب امرأة ليتزوجها أن يبعث أمه أو أخته إلى البيوت المعروفة أو المجهولة في مكة، فتلج الخاطبة وتصفق بيديها في الدهليز، فتنزل ربة الدار لاستقبالها والترحيب بها، فإذا طلعت واستقرَّت عرضت موضوعها، فإذا وجدن الرغبة والقبول أمرت بناتها أو أخواتها فيخرجن بعدما يلبسن أحسن ما عندهن ويتزيَّن، فإذا اقتنعت بالرؤية قالت: أريد هذه لابني أو لأخي، ثم يحصل التشاور من الطرفين إلى أن يتم الزواج، ولكن السيدة خديجة شُربة إذ تبعث بموظفاتها المذكورات للبحث عن عريس..." (المصدر السابق).

ويعدِّد الراوي بعض الأربطة الشبيهة برِباط خديجة شُرْبة: "وأوَّل من تأسَّى بها واقتدى وحذا حذوها، إحدى جاراتنا رحمها الله، وهي شقيقة المرحوم جمال لبني إحدى زوجات جدّنا عبد المعطي مِرداد الذي جمع بين أربع حرائر... وأطلق على هذا الرِّباط اسم رباط عبد المعطي مِرداد، وحذا حذوها المرحومة شقيقة المرحوم أحمد با ناعمة بشِعْب علي، وهناك رِباط الشحومي بمحلة الباب بالخندريسة، ورباط آخر بباب العُمْرة..." (المصدر السابق).

وتأتي محاولة الهرب الثالثة بعد رسوبه في الاختبار، وقد جَمَع قَدرًا كبيرًا من المال، حصل عليه من السيدة خديجة أم المكارم، وأمَّه الثالثة الحسناء، وما جمعه من مصروف المدرسة، لكن أمُّه المرضع تأمره بالعودة، ويلجأ في طريق العودة إلى عشش الزنوج، لكن حين يبدأ الحج يحجون جميعهم، يخاف من التخلُّف في الحج، وهنا يجد الفرصة سانحة للحديث عن (الخُلِّيف) و(القيس) يقول:

"وكانت مكة خالية من الحُجاج والناس... فانكشفتُ انكشافًا تامًا أمام أعين المخلفين في الخلِّيف، تقول العامة في مكة أيام الحج أي وقت يكون الناس في عرفة ومنى وقت خلوها من الناس (خُلِّيف) وتسمي من بقي فيها ولم يحج (مُخَلِّف) ومكة في أيام الخُلِّيف يزداد فيها الخوف، وتزداد الحوادث والخطف والنَّشل، وتظلم الشوارع، وخاصة تلك الأيام أيام الشريف الحسين رحمه الله إذ لا أمان ولا كهرباء، وأما القَيْس بفتح القاف وتسكين الياء، فيقصد به اللعب والرقص والتمثيل الذي يجري في ليالي الحج بمكة لمن يتخلَّف عن الطلوع إلى عرفة، فكانت بعض السيدات من اللائي تخلفن ولم يحججن، يخرجن بالليل لابسات زي الرجال، متسلحات بالخناجر، ومعتجرات ببعض ما يشدُّ به الرأس من العصائب والخِرَق.... ويصحبون الجواري والغِلمان... وغالبًا ما تبدأ هذه الخرجة من جَرْول ومن المعابدة ثم تعم مكَّة كلها..." (المصدر السابق)

وعندما يخرج إلى معنى الكلمة في مصادر اللغة، يستعين بالشعر الفصيح كعادته عند العودة إلى معاجم اللغة أو معاجم البلدان، يقول:

"القَيْس: بفتح القاف وتسكين الياء ثم السين، والقيس في اللغة هو الذكر، وأما اللعب والرقص والتمثيل الذي يجري في ليالي الحج بمكة لمن يتخلَّف عن الطلوع إلى عرفة فمأخوذ من المصدر وهو قاس قيسًا وانقياسًا واقتياسًا... من قاس بمعنى قدر

وشابه... ومن الشواهد: لعمري لقد قاس الجميع أبوكُم فهلا تقيسون الذي كان قائسا

وكلها بمعنى اقتدى وتشبَّه وتقلّد بمعنى سبق ومنه الشاهد:

إذا نحن قايسنا أناسًا إلى العلا وإن كرموا لم تستطعنا المقايس

والقيس يجمع إلى أقياس، وأنشد سيبويه:

إلا أبلغ الأقياس قيس بن نوفل وقيس بن أهيان وقيس بن خالد" (المصدر السابق)

ويأخذ البُعد الخاص في الكتابة هنا حيِّزًا كبيرًا، في تفسير كثير من الكلمات الغريبة على القارئ وما تلبسه النساء من ملابس، وما تمارسنه من رقصات وأغان في تلك الأيام، ولا يوجد مرجع آخر بحسب قراءاتي فصَّل في الخُلِّيف والقِيس كهذا الكتاب الذي يعد مرجعًا تاريخيًا مهمًا للحياة الاجتماعية والتعليمية في مكة في عهد الأشراف، ثم بدايات الحكم السعودي.

وأجد الفرصة سانحة هنا للحديث عن المرأة وتأثيرها الكبير على حياة الراوي منذ ولادته، فالمرأة أخذت حيِّزًا كبيرًا في هذه السيرة، وفيما سبق كثير من المواقف لأم الراوي بالرضاع هيف القناوية ورعايتها له، حتى أنها باعت ما تملك وارتحلت إلى مكة وسكنت في المعابدة لتكون قريبة منه، فإذا ماتت قامت الخالة حُسُون بما قامت به شقيقتها، فارتحلت هي كذلك إلى مكة وسكنت في جبل الكعبة، وبينهما تظهر العمَّة الصغرى التي أنس بها الراوي، ثم مَن أطلق عليها الحسناء في بيت خديجة شُربة، لكن كانت له مع كل هذا تجربة مريرة مع إحدى النساء في بيت الشيخ إبراهيم التلمساني الذي لجأ إليه في هربه الأخير هذا، والنسوة المتخلفات عن الحج يملأن البيت، يقول:

"لقد وثقت بكلام حرم المرحوم إبراهيم التلمساني، فصرتُ أخرج من الصباح أتلمَّس أبواب الرزق، وأرجع ليلاً عند المنام، فأجد النسوة عندها على اختلاف ألوانهن وأعمارهن. والكثير منهن من صديقات المرضع رحمها الله، فكنتُ أركن إليهن وكنَّ يستقبلنني أفضل استقبال، وكنتُ ألهو معهن وأتذكر أيام أم المكارم رحمها الله، والمطلّقات والمعلّقات اللائي تعلقن بي وأحببنني، فكنت أقول في نفسي، كل امرأة تحبني على ما يظهر لما لمسته وعهدته في النسوة اللائي ببيت أم المكارم رحمها الله، وما كنتُ أظنُّ أني سألقى المصير المشئوم على يدي النسوة، وكنتُ لا أعرف الحذر ولا الوَجل، ولكن من مأمنه يؤتى الحذِر..." (المصدر السابق).

وهذه المرأة كانت تريد غوايته، لكن الفتى الذي لم يبلغ الحلم كان يظن أنها تريد سرقة ما في حوزته من نقود. وبدأت نظرته للمرأة تتغيَّر، تقول د. صلوح السريحي: "وبدأ يأنس للمرأة الحضرية ويأمن جانبها، ولكن سرعان ما انكسرت صورتها في نفسه، وخيَّبت ظنه، وذلك عندما حاولت إحدى النساء غوايته وهو ابن العاشرة... وتخلَّص منها بالحيلة، ولكن انكسرت ثقته بالمرأة تمامًا، فالمرأة هي الفقيهة التي أمرت بضربه، وهي العمَّة التي طردته، وهي الآن التي تحاول سرقته، وكانت سببًا في تسليمه للأهل بعد قصتها معه، ليعود للحصار والسجن مرة أخرى" (السريحي، 2008)

ويكتشف الأهل بعد هذه الحادثة مخبأ الراوي في بيت التلمساني، ويأتي العِقاب هذه المرة عنيفًا جدًا وغير متوقع:

"يا للهول!! لقد هالني ما رأيت، إذ كان القوم أكثر مما كنتُ أتصوَّر كثرةً وغلظةً وعبوسًا وتقطيبًا وهم الوالد –رحمه الله– وقد كان مسافرًا أثناء هروبي وحضر الآن، ثم العم جمال –رحمه الله– والسيد المالكي، والعم با سلاسل، بالإضافة لهؤلاء القوم كان معهم حزوران قويان وأظن أنهما من صبيان با سلاسل، وفي يد واحد منهما قيْد من حديد وفي يد الآخر حبل من لِيف..." (المصدر السابق)

وفي أثناء سيره بين أحياء مكة بهذه الصورة المهينة، وكأنه يُساق إلى المشنقة يذكر أهم البيوت المكيَّة في ذلك الوقت، وعندما يصل إلى بيت الوالد، يصف هندسة البيت المكيّ، يقول:

"قادني الوالد إلى المجلس ثم قفل عليّ الباب ولم يكلمني، ثم صعد، أظنه صعد إلى السطح؛ لأن الناس في مكة ينامون على الأسطحة أيام القيظ في ذلك الحين، وحبوت على ركبتي حتى وصلتُ إلى مجلس كبير مفروش بالجلائل ويحيط به الكرويت من كل جانب، والكرويت عبارة عن سرر خببة قصيرة القوائم توضع عليها مراتب قطنية ومساند من الطرف... وصلتُ إلى صُفة بها مشاية من البلاط وفيها مِرْفع، وهو عبارة عن حديد مصنوع خصيصًا لوضع القُلل، وهو بتسمية العامة، وله أرجل ضعيفة يضرب بها المَثل...ثم وجدتُ موضئًا وموضعًا لقضاء الحاجة داخل المشاية أو السِّيب بلغة العامة... ثم وقفت أمام النافذة لأقذف بجسدي على الشارع، لكن عوارض الخشب كانت تحول بيني وبين ما أريد لأن النوافذ على شكل غُولة بلغة العامة، يعني مسدودة بالأخشاب من كل النواحي وفيها ثقوب على حجم فتحة العين المبصرة، بحيث ترى الشارع ولا يراك أحد..." (المصدر السابق).

هذا الوصف الدقيق للبيت المكيّ لا يجده القارئ إلا في بعض الكتب التي تتحدث عن التراث المكيّ، وبعض الروايات المكيَّة القديمة. ومع قيمة هذه المعلومات التاريخية، إلا أن مِرداد هنا –وفي مواضع سابقة أشرتُ إليها– يمارس في كتابته ما أسماه

بعض النقاد "الانتشار" أو "التشتيت" بطريقة يصعب ضبطها، والسيطرة عليها؛ فهي أشبه باللعب الحر الذي لا يتصف بقواعد تحدُّ من هذه الحرية في الاستطراد. (الرويلي، 2017)

ويكون عقاب الراوي شديدًا كما توقَّع؛ حيث يذهب به أبوه إلى بيت أمّه الحقيقية التي يراها لأول مره ويحبسه في حنية الفحم ويأخذ المفتاح معه، لكنه ما يلبث أن يفرج عنه بشفاعة أمه، وهنا تبدأ مرحلة جديدة من حياته:

"أما الآن وأنا على أبواب السنة الثانية عشرة من العمر، فقد تحضَّرت وسكنت في الحَضَر واختلطت لغتي وتعجَّمْت وأصابها ما أصاب المتحضرين من فسادٍ وعُجْمة... وبعدما اختطفني عمي رحمه الله من بين أمي وأخوتي ذهب بي إلى بيت العمَّات... ولما دخلت أخذ بأذني الوالد –رحمه الله– وزجَّ بي بين العمَّات، وقال: هذا البيت مأواك ومثواك حتى الممات، ولا خروج منه إلا إلى المدرسة، فقلت: مرحبًا وأذعنت لكلامه خوفًا من عقابه" (المصدر السابق).

فيدخل مدرسة الفلاح وهي من أوائل المدارس في مكة، أسَّسها أحد تجار اللؤلؤ الهنود وهو الحاج محمد علي رضا زينل، وتخرج فيها كبار رجالات مكة في الوقت الحاضر، وكانت استعدادات دخوله إلى المدرسة عام 1342هـ وكان قد بلغ الثانية عشر من العمر، ويلبس ملابسًا خاصة بالحُفَّاظ:

"أمر والدي العَمَّة أن تلبسني الثوب الكتَّان والسديري والجُبَّة والأنقوري والحِذاء المدَني والإحرام العزيزي، ثم وضعت لي المصحف الكريم في المحفظة الجلدية وبعض الكشاكيل، وقلمًا من البوص ودواة ولُفَّت هذه المجموعة في مُصَلَّيَّة صغيرة من المخمل الأحمر... وسألت والدي لماذا أتزيا بهذا الزي الذي لا يليق بالبداوة ولا تعتاده... فقال إن مدرسة الفلاح تكلِّف تلاميذها بلبس الجُبب رسميًا إذا انتظموا في سِلك حفظة القرآن" (المصدر السابق)

ويصف الراوي نظام المدرسة ونظام حفظ القرآن فيها ويذكر أسماء كثير من رجالاتها وأسماء كثير من الحُفَّاظ، والشيوخ الكبار الذين درَّسوه، ويعدِّد أسماء الناجحين الأوائل ويعرِّف بهم وقد أصبحوا وقت كتابة المذكرات من كبار رجالات مكة وموظفي الدولة.

وكان الراوي يهتم كثيرًا بتلاوة القرآن وحفظه ومدارسته، وكان لمكة بالطبع مكانة خاصة في ذلك؛ فكان الحجاج يفدون إليها ويقيمون شهورًا طويلة بها وتكون والحالة هذه الفرصة سانحة لتعلم العربية وحفظ القرآن وتجويده، يقول:

"كان الحجاج الوافدون إلى بيت الله الحرام في ذلك الحين يتعلمون قراءة القرآن مع التجويد؛ لأنهم كانوا يصلون من شهر رجب وخاصة سكان جزر جاوه والهنود والبنغاليين وسكان الهند الصينية... وكانوا يدرسون على يد نخبة من علماء مكة وقرائها، وبخاصة أصحاب الأصوات الحسنة الفريدة لأنهم يصلون في المسجد الحرام ويتبعونهم إلى بيوتهم... وكان المسجد الحرام صورة حية لجميع أدوار التعليم... وأما المهاجرون من الحجاج وأعني بهم الذين يبقون في مكة ولا يرجعون إلى بلادهم بقصد التعليم وحفظ القرآن..." (المصدر السابق).

وهو يفرِّق هنا بين الحجاج الوافدين ويقصد بهم الذين يأتون للحج ثم يغادرون، وتكون إقامتهم بمكة لأشهر الحج، والحجاج المهاجرين أي الذين غادروا بلادهم نهائيًا وأقاموا بمكة، ويذكر أسماء أشهر المقرئين والأئمة في ذلك العهد. وأعتقد أن المهاجرين هم من أصبحوا يسمون بالمجاورين، وهم الذين يقيمون بمكة للعبادة وحفظ القرآن، ويُقال إن المجاورة هي الإقامة بمكة، وإن كان ذلك لأهل مكة؛ لذلك يطلق على أهل مكة "جيران البيت" أو "جيران زمزم" (الباحثة) ويلحظ هنا التكرارية عند الكاتب، وهي تختلف عن التكرار المألوف؛ فالتكرارية هي قابلية التكرار والاسترجاع مرة بعد أخرى مع إمكانية الاختلاف (الرويلي، المرجع السابق) فقد سبق له أن ذكر عادات كثيرة في موسم الحج في عدد من المواضع، ولكنه يكرر ويوزِّع هذه العادات بشكل مختلف وما يحدث في هذا الموسم على جزء كبير من سيرته.

ومن الأحداث التاريخية التي حدثت في مكة، التي لا يجد القارئ لها مرجعًا غالبًا إلا هذا الكتاب وأقدم كتاب عن تاريخ مكة وهو كتاب "تاريخ مكة وما جاء فيها من الآثار" للأزرقي، السيول التي دخلت الحرم المكِّي ووصلت حتى الحَجَر الأسود، وهي من سيول كثيرة حصرها السيد رشدي الصالح ملحس في تعليقاته على كتاب الأزرقي، يقول الراوي:

"... كان السَّيْل في ذلك اليوم قد جاوز الحجر الأسود ووقف الطواف، وابتلع السَّيْل بعض المواشي، وأعدادًا من حبّات البطيخ والخضروات والكراسي التي يجلس عليها باعة الفاكهة، كما ابتلع تلميذين من مدرسة الفلاح، وكانا من أهل المصافي ويبعد بيتهما عن المدرسة كثيرًا، وكأنهما تلاعبا حتى أدركهما السَّيْل وكانا من المغرقين رحمهما الله." (المصدر السابق).

ويدوِّن كثيرًا من الذكريات والمشاهدات هذا العام بالذات 1346هـ؛ وربما كان ذلك لأنه كبر قليلاً، وأحس بالاستقرار في المدرسة، وقد تزوَّج عمُّه جمال في هذا العام ويصف حفل الزواج وصفًا دقيقًا ويوازن بينه وبين ما يحدث في البادية، لكن ما يسترعي انتباه القارئ المكانة التي كانت يتمتَّع بها هذا العم ليرسل له الملك عبد العزيز هدية أو هِبة كما وصفها الراوي:

"كان الناس المنعم عليهم بهدايا أو مرتبات من الحكومة يذهبون إلى الهِبات والمعاشات سعيًا لتحصيلها... والعم بالعكس، إذ قد رأيت بعيني رأسي في آخر ليلة من ليالي العُشْر الأخير من رمضان رجلاً ينادي من تحت دارنا بباب الدُّريبة بأعلى صوته (يا شيخ جمال) عدة مرات...فأطل فإذا هو شخصية كبيرة، فقال له (تفضل) وكان الناس في الأربعينيات والخمسينيات ينادون من تحت الدار، أما الآن فقد بطل النداء واكتفى الناس بالأجراس والقرع على الأبواب، وكل زمان وله تقلباته وظروفه وسبحان المغيِّر ولا يتغير...قدَّم الرجل للعم صُرَّة عظيمة تحتوي على ملابس، وصرة أخرى فيها نقود، ثم قال للعم: هذه هدية من جلالة الملك عبد العزيز..." (المصدر السابق).

في هذا المقتبس وفي مواضع أخرى سابقة وتالية، يشبه أسلوب الكاتب أسلوب ألف ليلة وليلة، فهو غالبًا يتحسَّر على تغيُّر الأحوال، وتبدُّل الأزمان، ويختم الكلام بعظة أو بدعاء أو بمَثَل من الأمثال العربية اللصيقة بسياق ما يتحدَّث عنه إلى السجع الخفيف، الذي يلتزم به أحيانًا.

ويستمر الراوي في الدراسة بمدرسة الفلاح إلى أن يصل إلى السنة السابعة بصعوبة شديدة وبتقدير ضعيف للانشغالات التي ذكرها سابقًا، ولصعوبة المواد ثانيًا، ثم يعود لذكر موسم الحج وما يحدث فيه، ويكرر بعض ما ذكر عن إقامة الحجاج في مكة، ويستبق إلى ذكر بعض الحجاج الجاويين الذين رحل إليهم في المستقبل، يقول:

"وكان متوسط إقامة الحجاج الجاويين في مكة ستة أشهر، وأول باخرة ترد من بلدان أندونيسيا في ذلك الحين في شهر جمادى الأولى أو الثانية، فسبحان من بيده ملكوت كل شيء... ,إني لأذكر سلطانًا من سلاطين جزيرة (سليبس) وكان سلطانًا على بلدة تُدعى (تلنيفة) زرتها فيما بعد وهي قريبة من بلدة (سنجاي) وسيأتي ذكر ذلك مفصَّلاً في الرحلة البوقسية، هذا السلطان كان يتردد على عمي المرحوم جمال، هو وزوجه وكانا إذ ذاك يجودان القرآن عند عمي المذكور، واسم هذا السلطان هارون... هذه من ذكريات هذه الأيام" (المصدر السابق).

وكان سبق أن ذكر أن أباه قَدِم من سفره، لكنه توقف واستطرد لذكر الحج في هذا العام؛ إذ هو من أفضل مواسم الحج وتجارة عمه فيه، وفي المقتبس استباق لرحلاته المستقبلية التي لم يُكتب لها الخروج إلى النور. وهذا القطع لزمن السرد والاستطراد ثم العودة إلى زمن القص، من الخصائص المميزة لأسلوبه، وأحيانًا يعتذر عن ذلك للقارئ، أو يضع عنوانًا لهذه العودة كما حدث هنا. يقول:

"عودٌ إلى تصاريف الزمان: قد سبق أن ذكرت أن والدي رحمه الله جاء في هذا العام من الهند وجاوه، ورآني تلميذًا كبيرًا من تلامذة الفلاح... سمعته يردد اسمي مع العم وصهره السيد المالكي... فإذا بي أسمع كلمة (خلوة) و (كتب) وكلامًا طيبًا من الوالد... أنا غير مؤاخذ الآن في سرد ذكرياتي، وما مرَّ بي من أحوال هذا العصر الطويل، وأطلب العفو من القارئ، لأن رحلة العمر هذه تجمع الغث والسمين في سرد مجريات الأحوال والأحداث... وأنا الآن أكتب بلغة الصِبا والدراسة والتشرد، ولأيام الصِبا نجمٌ أفل" (المصدر السابق).

ويأتي أبوه بعد ثلاث سنوات من سفره ويسمِّع له القرآن كاملاً ويعرِّفه على خلوته في (رباط الباشا) بالمسجد الحرام ويطلب منه أن يقيم بها ليذاكر دروسه؛ لأنه سيسافر إلى (جاوه) بعد الحج.

والخلوات في المسجد الحرام من الأماكن غير المعروفة لعامة الناس، وهي أماكن في الحرم يقيم فيها الشيوخ والعلماء وأئمة الحرم يتدارسون القرآن. وهي موجودة حتى الآن، ومن أشهرها خلوة الشيخ عبد الرحمن السديس إمام الحرم حاليًا (الباحثة).

يصف الراوي خلوة أبيه في (رباط الباشا) فيقول:

"... أخرج الوالد مفتاحًا من جيبه وفتح أحد الأبواب، وإذا بغرفة فسيحة تطل على باب الزيادة مفروشة بالبساط الجميل وبها رفوف خشبية مشحونة بالكُتب القيِّمة... ثم قال: أنت الآن رجل وتلميذ ناجح وطالب عِلم وتحتاج إلى مطالعة وقراءة هذه الكتب، وإني سأسافر بعد الحج إلى بلاد (جاوه) لأن لي بها علاقة عائلية وتجارية ولا أستطيع البقاء هنا، فأنت خليفتي على هذه الخلوة... ثم أردف قائلاً سيأتي غلام من جزيرة مدورة يمتُّ إلينا بصِلة رَحِم وسيكون عندنا ويتعلم في مدارس مكة، ويسكن في هذه الخلوة ويساعدك على كنسها وترتيبها كما سيذهب إلى البيت للمساعدة وقضاء اللوازم، ويقصد بالبيت بيت أمي الحقيقية، وكانت دارها في سويقة فوق الرَّفة ونوافذ الدَّار تطلُّ مباشرة على سطح الرِّباط" (المصدر السابق).

وقد يلتبس لدى القارئ هذا الرِّباط بما ذُكر سابقًا من معنى الكلمة، وقد حدث ذلك للراوي، أما لماذا سُمي برباط الباشا، هل الذي بناه هو أحد أشراف مكة الذين تولوا إمارة مكة من قِبل السلطات العثمانية؟ هذا ما لا يعرفه الراوي حتى كتابة هذه المذكرات:

"... وأما سكان هذا الرِّباط فكلهم من وجهاء مكة كما ظهر لي وكنت في بادئ الأمر أظنهم من الفقراء أو المهاجرين على نمط رباط

السليمانية بباب الدُّريبة ورباط العباس ورباط الداودية، ورباط الحارثي، ولكن ظهر لي خلاف ما كنت أظنه" (المصدر السابق).

ويذكر أسماء كثير من الأشراف والعلماء وأسماء خلواتهم، وكل هؤلاء كانوا يسكنون خلواتهم نهارًا لأشغالهم ومذاكرتهم، ولا يبيتون بها ليلاً. ويدعو بعد ذلك أساتذته لخلوة أبيه ليطَّلعوا على الكتب النادرة.

ويكثر في هذا الجزء من الاستباقات وكأنه يستعجِّل الأحداث بعد أن أحسَّ بالاستقرار وتفوَّق في دراسته، ويزمع على التمرُّد على العم ليستقل في الخلوة:

"وليكن ما يكون، شاربي قد نبت ووجهي قد تبقَّل وسني سبعة عشر، وجسمي قد تمرَّن على العِقاب وقدمي قد ألف الهرب وتسلُّق الجبال، وأعوامي الطِوال قد قضيتها في الغُربة ما بين الزيمة ومكة والمضيق والطائف... وعندما حانت الساعة الثانية الثامنة بالتوقيت الآخر، إذا بالبواب يسلِّم عليَّ من خارج باب الخلوة، فرددت السلام ثم أردف قائلاً: ما الخبر؟ فقلت له: إني سأنام هنا الليلة يا حاج يحيى... وعندما تقاربت الساعة من الرابعة (العاشرة بالتوقيت الزوالي) سمعتُ طرقًا شديدًا على باب الخلوة وكان السيد المالكي يبحث عني" (المصدر السابق).

ثم يحكم وكلاء الوالد وأصدقاؤه بأن يبيت بالخلوة يومًا وعند عمِّه جمال يومًا وهكذا حتى يتخرَّج من المدرسة، وتجدر الإشارة إلى أنه في ذلك العهد وحتى عام 1384هـ كان التوقيت الغروبي هو التوقيت الرسمي في السعودية، وهو يعد مغرب الشمس بداية اليوم الجديد، وكانت الساعة تضبط مغرب كل يوم على الساعة الثانية عشرة، أما التوقيت الزوالي فيبدأ بعد الساعة الثانية عشرة ليلا أو الساعة الرابعة والعشرين، ويمتد لأربع وعشرين ساعة ويكون منتصف النهار عند الساعة الثانية عشرة ظهراً. وهو التوقيت المعمول به في العالم كله. وفي هذا الكتاب كان ما يزال التوقيت هو الغروبي (الباحثة) ويذكر ذلك الكاتب عبدالله خيّاط وقد عاصر زمن تغيير التوقيت، يقول: "وفي تلك الأيام كان الناس يتطلعون لتغيير الساعة الغروبي للتوقيت الزوالي، ومواقيت الإذاعة الرسمية والتليفزيون ودوام الحكومة يتم بالتوقيت الغروبي، ثم طالب أكثر من كاتب في الصحافة باعتماد التوقيت الزوالي، فكان ذلك" (با طرفي، 2012).

عندما ينتقل إلى السنة التاسعة يصبح صديقًا للأساتذة العلماء، ويصبح لديهم عطلة صيفيَّة كما في المدارس الحكومية التي انتشرت وتكاثرت، وكذلك المدارس الليلية، حيث كانت مكة هي العاصمة، لكن دواوين الحكومة تنتقل إلى الطائف في الصيف، وترشِّحه المدرسة لتدريس أبناء أحد رجالات الحكومة وهو الشيخ حامد الرويحي؛ فيفرح لهذا الترشيح لأنه سيمر في سفره بأهله في الزيمة وتكون هذه أول رحلة له بالسيارة النفطية. ويذكر أسماء كثير من رجال الحكومة في ذلك العهد، الذين التقى بهم عند الرويحي. (المصدر السابق).

وتأتي هنا بعض الاستباقات عندما يستطرد ثم يعود إلى الزمن الحاضر، يقول:

"يزور ديوان الرويحي عدد كبير من المواطنين، ومن لهم مراجعات ومعاملات من سائر أقطار المملكة، حتى من المنطقة الشرقية، وهذا قبل أن يطلق على المملكة اسم المملكة العربية السعودية، لهذا السبب تعرَّفتُ على الكثير من أعيان ووجهاء المملكة، وتبادل زيارات ومعاملات تجارية عندما فتحتُ مخازن للتجارة بمكة وجدة والطائف من أول الستينيات إلى ما بعد الثمانينيات ثم أغلقت بسبب انتقالي إلى مصر من ذلك التاريخ حتى تدوين هذه المذكرات" (المصدر السابق)

ويحدث أن تكسد تجارة أبيه في الحنابِل الهندية بالإضافة لكساد موسم الحج في ذلك العام، فيقرر الوالد السفر نهائيًا إلى جاوه ويأخذ أمه الحقيقية وإخوته ويصر على أخذه معه، ولكنه يهرب إلى خالته حُسُون، وقد اشترت بيتًا بمكة، ويختبئ في بيتها حتى يسافر والده ومن معه، ويخرج إلى دار الشيخ الرويحي، ويختبر الاختبار النهائي ويتخرج عام 1350هـ. ويذكر أن هذا كان عام البؤس؛ فقد خسر صاحب مدارس الفلاح في تجارته كذلك، ولا يجد رواتب المدرسين!

"ولسوء الحظ في هذا العام بالنسبة لمدارس الفلاح عام بؤس وفقر، إذ جمع مدير الفلاح الأساتذة والمتخرجين نحن أبناء التاسعة، ثم أعلن توقّف الحاج محمد علي زينل عن دفع أجور المدارس والمعاشات بسبب خسارته في تجارة اللؤلؤ، ثم قال للمدرسين القدماء ليس عندنا في الخزينة ما يغطي معاش هذا العام ولا تنتظروا بعد الآن معاشًا كاملاً، فتفضلوا من غير طرد ولا عتاب" (المصدر السابق).

ولكن الراوي بعد ذلك بعام أي في عام 1351هـ يعمل في المدرسة الفخرية العثمانية، وهذه المدرسة كانت من المدارس الشهيرة في مكة، وقد ذكرت د. عائشة هذه المدرسة التي درس بها كبار أدباء مكة ومنهم حمزة بوقري الذي ذكرها في كتابه "سقيفة الصَفا" وذكر أقسام المراحل الدراسية فيها، وطلابها، ودراسته بها بالطبع. (الحكمي، المرجع السابق) وقد عمل فيها الراوي براتب قدره أربعون روبية هندية، وفي الصيف كان يرحل إلى الطائف لتدريس أبناء الشيخ الرويحي، وعندما تفلس المدرسة الفخرية، يقرر

السفر إلى جاوه ليلحق بعائلته، وينتهي الكتاب وهو على ظهر الباخرة مسافرًا في أول رحلة بحرية عام 1352هـ. ويطوي كثيرًا من السنوات، على أمل التفصيل في الجزء الثاني من الكتاب الذي وعد القارئ به كثيرًا، يقول:

"وفي نهاية شهر ذي الحجة من هذا العام غادرتُ البلاد المقدَّسة، حيث دخل العام الجديد عام 1352هـ وأنا في البحر على ظهر الباخرة الهولندية التي تنقل الحُجاج من ميناء جدة إلى تلك الجُزُر، ولم أدخل الوظائف من ذلك العهد حتى عام 1358هـ حينما نشبت الحرب العالمية الثانية وأُغلقت البحار ومُنعت الأسفار ولم يكن بدّ من التوظيف لأني كنت آنذاك صاحب أُسرة، فعُينت مدرِّسًا للغة العربية بالمدرسة الملكية بالطائف، ثم عُينت معاونًا لإدارة مدرسة الطائف السعودية، ثم مدرِّسًا بمدرسة الأحساء، ثم أستاذًا للمرحوم الأمير منصور بن عبد العزيز، ثم مديرًا لمدرسة الخُبر، ثم مديرًا للمدرسة السعودية بمكة المكرمة، وما أن وضعت الحرب أوزارها بعد ستة أعوام حتى بادرتُ بتقديم استقالتي، واستئناف سياحتي وتجارتي، وسيأتي شرح ذلك فيما بعد عندما نصل إلى ذلك عند ذكر الرحلات" (المصدر السابق).

وهكذا يختم الراوي كتابه وهو في أوائل مرحلة الشباب، وينتهي هذا الكتاب الذي يعد من أوائل الكتب في فن السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث في السعودية؛ كما يعد الكتاب الذي صدر قبل أكثر من ربع قرن، ثَبْتًا للحياة الاجتماعية في مكة، كما اهتم بتفسير الألفاظ والكلمات العاميَّة المكيَّة، وأرجع بعضها إلى الفصحى واستعجم بعضها واستغربه، وقارن بينها وبين لهجته البدوية، بالإضافة لاهتمامه بالأماكن في مكة المكرمة وأحيائها، والطائف وأوديتها وبساتينها وقراها، وما بينهما من قرى وبادية، كما ذكر كثيرًا من عادات أهل مكة، إضافة إلى الأمثال الحضرية العامية والبدوية، وإيراد ما يشبهها من أمثال عربية فصيحة، ونماذج من الشعر العربي القديم، ويعيد كل ذلك إلى المصدر الأساس، وهذه تأتي غالبًا في التعليقات اللغوية آخر كل فصل. (المصدر السابق)

ثانيًا- "سنوات الجوف- ذكريات جِيل" لعبد الواحد الحميد:

الدكتور عبد الواحد الحميد:

ولد الدكتور عبد الواحد خالد الحميد في 14 ديسمبر 1953 م وغادر منطقة الجوف أواخر عام 1971م للدراسة في جامعة الملك عبد العزيز بمدينة جدة، ثم إلى الولايات المتحدة الأمريكية التي عاد منها بالدكتوراه في الاقتصاد عام 1984م لجامعة البترول بالظهران، ثم استقر في الرياض بعد تعيينه عضوًا بمجلس الشورى وتاليًا نائبا لوزير العمل.

آخر ثلاثة مناصب :

1. أمين عام مجلس القوى العاملة (2001-2004م)
2. وكيل وزارة العمل للتخطيط والتطوير (2004-2007م)
3. نائب وزير العمل منذ (2007-2011م)

المناصب الحالية :

1. عضو مجلس أمناء جامعة اليمامة بالرياض 2013م.
2. عضو مجلس إدارة الهيئة العامة للسياحة والآثار 2014م.
3. عضو مجلس إدارة مركز الأمير عبد الرحمن السديري الثقافي ورئيس هيئة النشر 2014م. النبذة مختصرة من الصفحات302-304 من الكتاب.

يعدُّ هذا الكتاب وثيقة زماكانية أخرى، وإن كانت حديثة عهد نوعًا ما بالمقارنة بكتاب مِرداد، أما الميثاق السِيَري فقد جاء واضحًا مباشِرًا؛ فالكاتب يقرره منذ الصفحات الأولى للكتاب:

"ما ترويه هذه السطور، لا أعدُّه ذكريات شخصية تخص فردًا واحدًا من الناس، بقدر ما هي محاولة لتسجيل ذكريات الجيل الذي وُلد في الخمسينيات الميلادية من القرن العشرين في حيٍّ من أحياء مدينة سكاكا بمنطقة الجوف في المملكة العربية السعودية، وعاش طفولته ومراهقته في عقدي الخمسينيات والستينيات، بكل ما في تلك الحقبة من صَخب وتحوّلات اجتماعية جذرية، تلك البيئة المحدودة، التي تبدو للوهلة الأولى كما لو أنها كانت تعيش على هامش الأحداث، وغير موجودة على الخريطة... هذه السطور ربما لن تهمّ إلا قِلة من الناس الذين عايشوا تلك الأحداث في طفولتهم البعيدة، وقد تهمّ أيضًا بعض المعنيين بمعرفة الخلفية الاجتماعية لحِقبة تاريخية محدَّدة كما اختزنها خيال طفل، فهي تركِّز بالدرجة الأولى تلك الخلفية الاجتماعية بصرف النظر عن أسماء الأشخاص، وهي لا تدَّعي لنفسها الدِّقة ولا تؤرخ لإنجازات ونجاحات هؤلاء وفشلهم" (الحميد،

2017).

وفي الكتاب كثير من الصور لشخصيات كثيرة، وقصاصات من صحف ومجلات على امتداد صفحات الكتاب، وهذه تدخل في الميثاق السِيري كذلك.

و يضع هنا المؤلف قواعد صريحة وواضحة لكتابته، بل يحدد للقارئ كيف يقرأ هذا العمل.وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن "كل حكم يقيم علاقة ثلاثية بين المنتِج والعمل والمستهلِك هو حُكم وهميّ؛ لأن هذه التحققات الثلاثة لا يمكن أن توجد كلها في التجربة نفسها ... وهذا لا يمنع القارئ من اختيار صِيَغ قراءة مختلفة عن الصِيَغ المقترحة عليه" (لوجون، المرجع السابق).

وقد سبق أن افترضتُ أن الكاتبيْن كانا يتصلان من تسمية ما كتبا بالسيرة الذاتية؛ لأنهما عاشا في بيئة محافظة؛ فمجريات السيرة الأولى للكاتب محمد عبد الحميد مِرداد، بدأت أحداثها إبان الحرب العامية الأولى، وعاصرت عهد الأشراف في الحجاز، ثم حُكم الملك عبد العزيز وتوحيد الجزيرة العربية تحت مسمى المملكة العربية السعودية، كما كان مِرداد أحد رجال التربية والتعليم بعد ذلك، والدكتور عبد الواحد الحميد عاش كذلك في بيئة نائية على حدود السعودية مع الأردن، وكان وما زال من موظفي الدولة الكِبار؛ فالسيرة لا تحتوي على كثير من الأمور الشخصية، بينما تركِّز –وهذا أنكره الحميد في المقتبس السابق– على أسماء كثير من الشخصيات التي عاصرت الكاتب ونجاحات وفشل هؤلاء بالتزامن مع ما يرصده الكاتب من نجاحاته وإخفاقاته. كما أنه يعترف في هذه المقدمة أنه يخفي تفاصيل كثيرة حين يقول: "وأعترف منذ البداية أن تفاصيل كثيرة لا يتسع المجال للخوض فيها، وتفاصيل أخرى لا يمكن روايتها" (المصدر السابق).

ويبقى من السيرة الذاتية الكثير، حيث يروي كلٌّ منهما سيرة حياته منذ الولادة، وقد تفوَّق الحميد بأن سيرته امتدت حتى الوقت الحالي، وهي سيرة حديثة كما ذكرت، بينما مِرداد الذي كان مولعًا بالرحلات، كان يريد أن يكتب جزءًا آخر يضمِّنه رحلاته، وهذا الجزء لم يخرج إلى النور، ولو أكمل هذه السيرة لكان ذلك أجدى.

وتبدو أهمية هذا الكتاب إذا عرف القارئ أن تاريخ هذه المنطقة لم يدوَّن حتى الآن، كما ذكر الكاتب "وتاريخ المنطقة غير مدوَّن عدا ما نقلته لنا الأشعار الشعبيَّة التي صوَّرت أحداث أزمنة متفرقة، وأحوال الناس في بيئة لم يعرف التعليم طريقه إليها" (الحميد، المصدر السابق).

فإذا كانت مكة المكرمة ومنطقة الحجاز بشكل عام من أوائل مناطق المملكة في النهضة التعليمية والأدبية –حيث يقرر دارسو الأدب العربي الحديث في السعودية أن النهضة التعليمية والأدبية بدأت من مكة منذ عهد الأشراف، وبعد دخول الملك عبد العزيز إليها– (مجموعة من الدارسين، 2001) فإن منطقة الجوف ومدينة سكاكا مسقط رأس الراوي كانت بعيدة عن ذلك؛ إذ تعدُّ من المناطق النائية، التي لم يصلها التعليم إلا في وقت متأخر نسبيًّا، وقد يكون لبعدها هذا عن بقية المناطق مزيَّة أخرى؛ حيث تقترب من الدول العربية المجاورة، يقول:

"ومنطقة الجوف بحكم موقعها الجغرافي في شمالي المملكة العربية السعودية وقربها من العِراق والأردن وفلسطين، وانفتاحها على منطقة الهلال الخصيب، كانت ثرية بالأحداث الاجتماعية التي تعكس ما كان يدور في الدول العربية المجاورة، وكان جيلنا يتأثر ويتفاعل مع تلك الأحداث على الرغم من الهدوء الذي يبدو على السطح في تلك المنطقة الصغيرة التي جرت العادة في وسائل الإعلام المحلية على إدراجها ضمن ما يطلق عليه "المناطق النائية" أو "المناطق الطَرَفِيَّة" (المصدر السابق).

وفي الكتاب كثير من التقريرات عن الحياة الاجتماعية في المنطقة قبل الدخول إلى الحياة الشخصية للراوي، وهذا ما جعلني أجمع هاتين السيرتين معًا، فتاريخ المرحلة والأجيال يغلب عليهما، ويستوقف القارئ في مواضع عديدة في هذه السِيرة نفي العنصرية عن مجتمع الجوف بشكل عام، من هذه المواضع قوله:

"لم يكن جيلنا أبدًا متعنصرًا. فعلى الرغم من إرث الحروب الأهلية في الجوف، وما يصنعه تجاور القبائل المتنافسة، والخليط السُكاني المتباين من البادية والحاضرة والنزاعات مع البلدات والمناطق المجاورة، إلا أن جيلنا تسامى عن ذلك... وقد كان في الجوف الصغيرة عائلات وأفراد من خارج المنطقة ومن خارج المملكة، ولم يكن أحدٌ من أهل الجوف يتعامل معهم على أنهم أجانب... ثم كانت الطَفْرة التي فتحت الباب واسعًا لقدوم ملايين البشر من جميع أنحاء العالم إلى المملكة" (المصدر السابق).

ومن المعروف أن مجتمع مكة المكرمة عُرف منذ القِدَم حتى الآن بالتسامح والمرونة في التعامل مع الآخر؛ فمجتمع مكة خليط من جنسيَّات كثيرة، فرض ذلك الأعداد الكبيرة التي تنزح إليها من حُجاج بيت الله الحرام، وقد وردت في كتاب مِرداد أخبار تثبت ذلك. وهنا يتعرَّف القارئ على مجتمع آخر يبتعد كثيرًا عن مكة عُرف بقدر كبير من التسامح؛ بسبب قربه من دول الهلال الخصيب، وكثرة من يرتحلون إلى الجوف من الدول العربية شمال المملكة.

وعندما يبدأ الكاتب في كتابة سيرته منذ مولده، يثبت للقارئ معلومة كنتُ أشكُّ في مصداقيتها، وهي ما يُعرف في السعودية بمواليد 7/1 الأول من شهر رجب، يقول:

"مثل الغالبية العظمى من السعوديين، كنتُ من مواليد الأول من رجب، وحكاية الأول من رجب معروفة في السعودية ... أما تاريخ ميلادي المسجَّل في وثائقي الرسمية نصف صحيح؛ فسنة الميلاد هي 1373هجري الموافق 1953ميلادي، في بعضها، و1954ميلادي في بعضها الآخر، أما اليوم والشهر فهما السابع من ربيع الثاني وليس الأول من رجب... والغريب أن لعبة الأرقام هذه التي يتم إعدادها في المدارس وفي الدوائر الحكومية بحسن نِيَّة، ذات تأثير نفسي مريح لمن يربح مساحة زمنية وهمية يضيفها لسنيّ شبابه ويدفع بها شيخوخته" (المصدر السابق) وهو ما يُعرف بالتسنين. "كانت إدارات الأحوال المدنية تسجل ميلاد السعوديين على أنه الأول من رجب؛ لأن أغلبهم وخاصة سكان القرى والمناطق النائية لا يعرفون تاريخ مولدهم الحقيقي، أو من لم يولدوا في المستشفيات، وهذا يعرف بـ "التسنين" والأول من رجب هو منتصف العام، مما يعطي مزايا تقاعدية للموظف لاحقًا" . (الرويشد، 2018)

ولد الراوي في حي الشعيب، ولم يكن يعجبه هذا الاسم، يقول:

"الحي الذي وُلدتُ فيه اسمه "الشعيب" في شمالي سكاكا بمنطقة الجوف. ولم يعجبني هذا الاسم أبدًا عندما كنت صغيرًا أدرس في المرحلة المتوسطة... وقد اهتدى عمِّي ثاني الحميد إلى حيلة أراحته وأراحتني كثيرًا، فرأى أن نتعمَّد ارتكاب خطأ إملائي في عناويننا فنكتب "حارة الشَّعب" ... وفي تلك الأيام في سكاكا لم يكن مهمًا أن يكون لك عنوان دقيق، أو أن لا يكون لك عنوان على الإطلاق، فيكفي أن يكتب اسمك على مظروف يصلك عن طريق أي شخص يذهب إلى مبنى البريد" (المصدر السابق).

ومع قِلة أعداد المدارس في هذه المنطقة وعدم انتشار التعليم، فإن عائلة الراوي كما يبدو كانت سبّاقة إلى ذلك، فجدُّ الراوي لأمِّه درس في المعهد العِلمي في الجوف عند افتتاحه، بعد أن أتم تحصيله الديني التقليدي على أيدي الشيوخ. (المصدر السابق).

وتبدو بيئة الجوف الزراعية قريبة الشبه من بيئة الزِّيمة التي نشأ بها مِرداد؛ بل إن الكاتبيْن يتفقان في هواية صيد العصافير، لكن مِرداد لا يفصِّل في ذلك كثيرًا على ضخامة سيرته، أما هنا فهو يسهب في وصف الصيد وآلاته، ويستطرد حتى لأهازيج خاصة لكل نوع من أنواع العصافير، من ذلك قوله:

"كان اصطياد العصافير من أمتع الهوايات، ويتم اصطياد العصافير بطرق عديدة، فهناك الصيد بوضع الفخ الذي كنا نسميه "نبْيلة" في أحواض الماء وهي مصنوعة من جريد وخوص النخل بشكل قوس ينحني حول عصا مغروزة في الحوض، وعندما يأتي العصفور لشرب الماء، يقف على الطرف الذي ينطلق منه القوس فتنغرز رجله في المحبس... وهناك "النبيطة" ... وهناك طريقة ثالثة وهي نصب فخ للعصفور، وإخفائه بدقة في التراب...وفي الغالب لا يتجه العصفور إلى الفخ من تلقاء نفسه، وإنما يحتاج إلى "جلب" أو ما كنا نسميه "التنوقز" أو "التدورج"... وهناك أهزوجة لكل عصفور" (المصدر السابق).

وسيبدأ بعد ذلك في رصد حال التعليم في المنطقة؛ فهو مولع برصد ما يخص الحياة الاجتماعية المتميِّزة في منطقته عن بقية المناطق، ومن ذلك ما كان يُعرف بـ "الشَّبَّات" وهي عادة اجتماعية مألوفة في المناطق الشمالية من البلاد، يقول:

"خلال فترة الظهيرة يلتقي بعض أهل الحيّ فيما يعرف بـ "الشَّبَّات" لتناول الشاي والقهوة وتبادل الأحاديث، وهناك شبَّات أخرى في أوقات الضحى والعصر والمساء، ويختار أهل الحي التوقيت الذي يناسبهم حسب ظروفهم... كانت الشَّبَّات تقام في المجالس العربية التي يسميها الناس "قهاوي" في البيوت الطينية واحدة مكشوفة في الصيف وهي "القهوة البَرَّانيَّة" وأخرى في الداخل تستخدم في الشتاء وتسمى "القهوة الجوَّانيَّة" (المصدر السابق).

ويستطرد إلى محتويات هذه الشَّبَّات من أباريق ودِلال والأحاديث التي تدور حول قضايا السياسة، وفي مقدمتها قضية فلسطين، وقضية الجزائر، وحرب فيتنام وحرب اليمن، وما يجري من انقلابات في الدول العربية. (المصدر السابق).

وهذا يجعله يذكر دور الإعلام السعودي الذي لم يكن له تأثير يُذكر، لكن من مزايا منطقتهم النائية أنهم كانوا يستطيعون التقاط بث كثير من الإذاعات التي كان لها تأثير كبير عليه وعلى المجتمع آنذاك:

"كان الراديو هو الوسيلة الإعلامية الرئيسية التي يستقي منها الناس المعلومات... وكانت برامج إذاعة المملكة الأردنية الهاشمية التي تبث من عمّان وفلسطين في النصف الأول من الستينيات هي البرامج الأولى لدى قطاعات واسعة من المستمعين في حي "الشعيب" ... وتميَّزت إذاعة لندن عن جميع الإذاعات ببرامجها الكثيرة...وكانت هناك إذاعة إيرانية تُبث بصفاء من الأهواز، وكانت برامجها دعائية موجهة ضد الحكومة العراقية... كما كانت الإذاعة الإسرائيلية من أورشليم القدس تُبث باللغة العربية..." (المصدر السابق).

وكانت الإذاعة هي التسلية الوحيدة في ذلك الزمن؛ لعدم وجود كهرباء أولاً؛ ثم لتأخر البث التليفزيوني خاصة عن هذه المنطقة.

وذكريات الطفولة ومشاهدات الطفل الصغير عن الحي والناس والعادات والتقاليد في الجوف هي التي تغلب على هذه السيرة حيث لا تحظى مرحلة المراهقة والشباب إلا بربع الكتاب تقريبًا، وقد شكَّلت اليوميات التي كان يدوِّنها الكاتب وهو صغير مرجعًا مهمًا لهذه السيرة، ولكن هذه الوثيقة في حد ذاتها ليست ضامنة للصحة، فيمكن كما يقول أحد الدارسين أن تكون اليوميات الخاصة بالغة الغموض، فما تحتاجه السيرة –كما يقول– روزنامة أكثر موضوعية من اليوميات. (ماي، المرجع السابق).

وأرى أن ذاكرة الطفل لا يُستهان بها، والسنوات الأولى في حياة الإنسان وما يحدث بها، قد تؤثر على مسيرته طوال حياته، ويركِّز الراوي الطفل على كل مُتَع الطفولة، وقد لا يشارك أحيانًا في كل هذه المرفهات لكن وجود الراوي داخل النص وخارج النص لا ريب فيه؛ فهو منشئ الخِطاب والمسئول الأول عن صحة كل ما يرد فيه. يقول:

"ويلعب الأطفال "الحاح" أو "عِظِيم ظاح" أو "فري يا شعيرة" وغيرها من الألعاب الممتعة التي قد تتخللها في بعض الأحيان مضاربات بين الأطفال، وخاصة في لعبة "الحاح" التي قد تنتج عنها إصابة أحد اللاعبين... وفي الصيف تطرح البساتين و "الحوط" خيراتها... ويتجمَّع الأطفال على شكل عصابات صغيرة متنافسة تتسل إلى الحوط وتسطو عليها... ومن الطريف أن بعض الأطفال يكونون أعضاء في مجموعات تسطو على البساتين التي يملكها أهلهم... وتتكرر بطولات هذه المجموعات الصغيرة في المناسبات التي تُقام فيها الولائم... ويكون تنفيذ خطة "الغارة" أيسر عندما يتواطأ طفل من أهل البيت مع أفراد عصابته، ويسهِّل لهم انتزاع رأس الذبيحة..." (المصدر السابق).

والراوي لا يوضِّح للقارئ طريقة هذه الألعاب، فهي غريبة بالنسبة لمن يقيم خارج المنطقة، ولا سبيل لمعرفتها سوى من أحد من سكان الجوف، وهذا ما كان، في "الحاح" يقف طفل أشبه بالحارس، يحرس نقطة معينة (حجر أو مكان معين متفق عليه) وبيده عصا طويلة وقطعة صغيرة من الخشب، يقذفها باتجاه لاعب آخر يكون على مسافة منه، حيث يتلقَّى القذيفة. ثم يحاول بقطعة الخشب أن يصوِّب باتجاه موقع الحجر الذي يسمونه "الأم" الذي يقوم اللاعب الأول بحراسته، في محاولة لإصابته، بينما يقوم الحارس بمحاولة صدِّه بالعصا، ومن يحقق هدفه يعد هو المنتصر. أما "عِظِيم ظاح" فهي لعبة يمارسها الأطفال والراشدون أحيانًا في الليالي المقمرة، حيث يتم اختيار واحد من اللاعبين الذي يقوم برمي قطعة عظم بعيدًا، وينطلق اللاعبون بالتنقيب عنها تحت ضوء القمر، ومن يعثر عليها يكون هو المنتصر، وهي لعبة تختبر حِدَّة النظر ومهارة البحث. أما "فري يا شعيرة" فهي لعبة الغميضة الشهيرة. (الدرعان، 2018).

وللحارات الشعبية قديمًا تقاليد مرعية، ربما لم يذكر معظمها مِرداد؛ لأن اهتمامه كما أسلفت، كان ينحصر في الألفاظ وتفسيرها، وللحارات في سكاكا تقاليد متميزة، يرصد الراوي أهمها، يقول:

"من تقاليد الحارة التي عرفتها في طفولتي المبكرة وجبات الإفطار الرمضاني التي تجمع أهل الحارة، رجالاً وأطفالاً وتشترك البيوت جميعًا في إعدادها... وكان الذهاب إلى تلك العزائم يمثل فُسحة سعيدة ومناسَبة رمضانية مبهجة... وتبلغ قمتها ليلة العيد عندما تُنصب "الْعْدا" وهي جذوع النخل وتُشعل فيها النار ابتهاجًا بقدوم العيد... فرحٌ خرافيّ ينتاب الأطفال وهم يغنون ويرقصون حول "الْعْدا" ... ولأن الفاقة وضعف الحال والحرمان هي سمات صبغت حياة الكثير من الناس في ذلك الزمان، وانعكست على حياة أطفالهم، فقد كان العيد هو الهِبَة الإلهية التي تهبط من السماء لتُدخل البهجة إلى قلوب الأطفال..." (المصدر السابق).

ولم يكن بالجوف جامعة ولا أندية أدبية ولا جمعيات للثقافة والفنون، ولا نوادي رياضية، ما عدا نادي النجمة الرياضي، وكان متواضع الإمكانات بمقاييس اليوم، وكانت المدرسة تقوم بكل هذه المهام، وقد شارك الراوي الطفل في ذلك، ولكنها كانت مشاركة على استحياء، أما المتعة الكبرى فكانت في الأعراس، يقول:

"ومع أن الناس كانوا شديدي التدين ومحافظين إلى أبعد حد، لكنهم كانوا يحبون الحياة ولا يحرمون أنفسهم من الاستمتاع بها، وفق نظرتهم المتسامحة والمستنيرة للدين قبل موجات التشدد التي وفدت من خارج المنطقة... وكان الترفيه الباذخ وقتما تقام حفلة عرس يحييها أحد فناني الجوف وعلى رأسهم ثلاثة من الفنانين اعتزلوا الفن بعد حلول ما سُمي بـ "الصحوة" وكانت الوصلات الغنائية الموسيقية تبدأ متأخرة بعد أن تنتهي وصلات العَرْضة ووصلات السامري" (المصدر السابق).

إن السيرة الذاتية عامة تقوم على الاسترجاع الماضوي، سواء كان هذا الاسترجاع خارجيًا أي: قبل زمن السيرة، أو داخليًا: أي في الماضي القريب قبل الأحداث التي تروى، لكن مما سبق يبدو أن الراوي لم يستثمر فنيَّة الاسترجاع كما اعتمد عليها المِرداد كثيرًا، فخط السرد لديه مستقيم، يمضي غالبًا إلى الأمام منذ الطفولة إلى الشباب فالكهولة زمن الكتابة.

ولا يتوقف الراوي عن التحدث عن التسامح الديني بالجوف، عند أي مواقف مشابهة، وأن التشدُّد وافد جديد لا علاقة له بما كان موجودًا لديهم من انفتاح وتسامح حتى عند كبار السن.

أما السينما فكانت أكثر هذه المرفهات غرابة ومتعة للراوي الصغير وللكبار كذلك، يقول:

"... أما السينما المنزلية فكانت شيئًا آخر: آلة العرض الصغيرة، ومعها الشاشة القماشية البيضاء التي كانت تعلَّق على جدار في منزل زين محمد طاهر، هي أول تجربة عرض سينمائي شاهدتها في حياتي... وكنا نحن الأطفال ومعنا آباؤنا، نجلس على الأرض ونشاهد العرض السينمائي الذي غالبًا ما يكون فيلمًا مصريًا... وكانت مشاهدة تلك الأفلام بما تعرضه من عوالم وأجواء ومظاهر لا علاقة لها من قريب أو بعيد بعالمنا المحدود في سكاكا تمثِّل متعةً ودهشةً لا حدود لها بالنسبة لي أنا الطفل الذي لم يخرج من سكاكا إلا إلى عَرْعَرْ التي تبعد عنا حوالي 150كيلو مترًا" (المصدر السابق) وهنا استباق لأنه لم يزر عَرْعَرْ إلا في فترة لاحقة من حياته.

وتمثِّل الأسواق لديه صخب الحياة وبهجتها، وقد أفاض في وصف الأسواق، والدكاكين، وماذا تبيع، وكيفية البيع والشراء في الماضي، وأساليب المقايضة وغير ذلك. ومن وصفه للسوق الرئيس قوله:

"عندما يُقال السوق في ذلك الزمان يكون المقصود سوق سكاكا الرئيسي القديم... كان الحي بأكمله يسمى السوق، أو سوق البحر، وكانت التركيبة لحي سوق البحر مختلفة بعض الشيء عن التركيبة السكانية لحارتنا، كان يضم بعض العائلات التي قَدِمت من القصيم، وحائل وحتى من الدول العربية المجاورة... وكانت الدكاكين تحيط بساحة السوق من جميع الجهات، بينما تعجُّ الساحة بزحام المتسوقين والبَسْطات وحَلَقات الحَرَاج التي تتكون ثم تختفي ..." (المصدر السابق).

المهم أن الطفل الصغير يتعلَّم الأفكار التجارية الناجحة، ويتعرَّف على الروح النقابيَّة التي تجمع أهل "الكار" الواحد، وحرصهم على حماية مصالحهم، ويرصد بعض مشاهداته في السوق:

"الغريب أن السوق لم يكن يعكس خصائص اقتصاد مدينة سكاكا أو منطقة الجوف، فالمنطقة زراعية، وكان الشيء المنطقي أن يكون السوق مكتظًا بمحلات بيع المنتجات الزراعية المحلية، لكن واقع الحال غير ذلك، فقد كان أصحاب محلات بيع الخضروات والفواكه والعاملون فيها من الجالية الأردنية وخاصة أهل مدينة الرَّمثا...لأن العُرف هو أن تكون تلك المنتجات لتلبية الحاجة المنزلية... ولم تكن البيئة تشجع على ممارسة المِهَن الحرفية أو الصنائع أو بيع اللحوم، ولكنها كانت تحترم بعض المِهن مثل البِناء وتشييد الدور والمباني التقليدية التي كانت تتم في الغالب بأيدي أبناء المنطقة أنفسهم" (المصدر السابق). وهذا بالطبع كان سابقًا لفكرة التنمية الزراعية والريفية التي بدأت في الثمانينيات ولا شك أن كثيرًا من التطورات قد طرأت على هذه الأفكار، ويبدو أن بيئة الجوف والحالة هذه لم تكن منفتحة تمامًا كما وصفها الراوي. بينما كان البدو يبيعون هذه المنتجات. ويبدو السوق من الأماكن المفتوحة، فهو لذلك من الفضاءات المحببة بالنسبة للطفل الصغير، حيث يبدو وصف المكان مرتبطًا بالشخصية التي تصفه، وهنا يندغم الزمان مع المكان؛ فالسوق من الأماكن المحببة والحميمة عند الراوي في هذه المرحلة العمرية، وكذلك كانت المقاهي، لكن النظرة كانت سيئة لمن يجلسون على المقاهي، يقول:

"كانت المقاهي قليلة ونادرة، أما المطاعم فتكاد تكون غير موجودة، فقد كانت النظرة الاجتماعية لرواد المطاعم والمقاهي قاسية، بل كان من المُعاب على الشخص أن يذهب إلى تلك الأماكن!" (المصدر السابق) وهذه النظرة كما هو معروف نظرة قديمة متوارثة، فقد كانت القهوة في الشعر الجاهلي تعني الخمر، ويفند ذلك الناقد سعيد السريحي بقوله:

"واستعادة الخمر من خلال الذاكرة أو عبر المخيلة، باستدعاء اسمها القهوة، أو وصفها المنزل منزلة الاسم، أمرٌ لا يخلو من مخاتلة... فاستعادوا جميع ما يتصل بها ويفضي إليها... وتحوَّلت الأماكن التي يتم فيها تعاطي القهوة إلى حانات مشبوهة، واعتبر الاجتماع فيها من مِحن الزمان واستجلبت بذلك الكراهة وانصراف أصحاب الفضل عن مجالسها" (السريحي، 2011).

فإذا انتقل الراوي إلى وصف عَرْعَرْ التي أسماها "أم الدنيا" كان لا بدّ أن يجري موازنة بينها وبين مدينته والحي الذي نشأ فيه:

"كانت حارة التحتى بحي الشعيب عندما تفتَّحت عيوننا على الحياة في عالمنا الصغير المغلق، حيث تنعدم مقومات الحياة العصرية الحديثة وأهمها الكهرباء وما يتبعها من الأمور الضرورية والكمالية... ولم تكن توجد شبكة مياه للشرب في معظم أحياء سكاكا، أو طرق مسفلتة أو مستشفيات متخصصة... أو محلات تجارية كبرى... لم تكن سكاكا في ذلك الزمان إلا بلدة صغيرة تغفو على ماضيها التليد...في الواقع كان تخطيط مدينة عرعر أو بَدَنَة كما كانت تسمى، قد تمَّ وفق المفاهيم العمرانية الحديثة...كانت مغريات عرعر كثيرة لكن كان أهمها الخدمات الصحية التي كان مستشفى التابلاين يقدمها لكل الناس بمن فيهم المرضى القادمين من خارج عرعر..." (المصدر السابق).

وتبدو عرعر حاضرة المنطقة، ويستعين الراوي بصور عديدة لمستشفى التابلاين وصورة للأمير محمد بن أحمد السديري أمير المنطقة وهو يفتتح المستشفى عام 1954م. وهذه الصور كما أسلفت تدخل ضمن الميثاق السيري.

فإذا انتقل الراوي إلى حياته التعليمية، يجد القارئ أنه عنون الفصل السادس بـ "كم كانوا يضربوننا" وهذا يدلُّ على أن تجربة المدرسة كانت تجربة مريرة للطفل الصغير، وفي هذا الفصل يبدأ الالتفات للأحداث التي تتعلَّق بالراوي مباشرة بداية من دخوله المدرسة في سن السادسة إلى خروجه من الجوف للدراسة بأمريكا، ومعاناته في المدرسة شبيهة إلى حد كبير بمعاناة مِرداد في الكُتَّاب:

"يبقى اليوم الأول في المدرسة محفورًا في الذاكرة، كأنه يوم أمس، ذهبت إلى المدرسة ممسكًا بيد عَمِّي ثاني الحميد، وكان عمري ست سنوات، وسرنا مشيًا على الأقدام من البيت في حي "الشعيب" إلى "المدرسة الشمالية" التي كان بعضهم يسميها "مدرسة ليل" ...كانت المدرسة الشمالية تشغل مبنىً طينيًا مستأجرًا... وكان "ليل الدرعان" هو مالك المبنى... في الأيام الأولى من الدراسة، كان يأتي من يأخذنا إلى غرفة مفروشة ببساط "حنبل" مخطط باللونين الأزرق والأحمر، فنجلس على الأرض متزاحمين... بعد ذلك بأيام تم تجهيز فصل آخر بمقاعد خشبية مستطيلة ذات أدراج ونقلونا إلى هناك، لكن أجواء الفصل والمدرسة بقيت كئيبة وقابضة بسبب قسوة المعلمين... أحيانًا يخيّل لي أن المعلمين كانوا يضربوننا أكثر مما كانوا يدرسوننا... ولا يمكن أن أنسى ذلك الطالب الذي "سحبوه" وقت الفسحة أمام الطلبة و"بطحوه" أرضًا على قفاه، ثم قيَّدوا قدميه إلى خشبة ورفعوهما في الهواء وانهالوا عليهما بالضرب المبرِّح بالعصا بلا رحمة، ذلك الطالب ترك الدراسة ولم يكمل تعليمه الابتدائي، وابتلعته الحياة تائهًا على هامشها... أما المصيبة الحقيقية فهي أن الأهل كانوا يعتقدون أن الضرب أسلوب طبيعي للتربية... فيقولون "لكم اللحم ولنا العظم" ... وهذه ثقافة شائعة في المجتمعات العربية" (المصدر السابق).

ويستعرض الراوي أنواع الضرب التي كان يُمارس على الأطفال الصغار والبنات اللواتي كنَّ يدرسن في المدرسة نفسها؛ لعدم وجود مدارس خاصة للبنات ذلك الوقت. والمدرسون يضربون حتى مَن لم يخطئ، ويستعرض أسماء كثير من المعلمين السعوديين والعرب، مع إرفاق صور لبعض المدرسين والطلاب كذلك. ولا يستطيع القارئ إلا أن يرصد اختلاف النظرة للراوي الصغير بين الأماكن المفتوحة كالسوق والمقاهي وأماكن اللهو، والأماكن المغلقة المعادية كالمدرسة.

ولا يشهد هذا الجزء وما بعده أي استباقات زمنية، كما يبدو أن الراوي كان يعتمد فيه على يومياته وهو صغير؛ فهو يذكر أدق التفاصيل بخط زمني واحد غالبًا.

ويبدأ الراوي يتحرر نوعًا ما مع بداية المرحلة المتوسطة حيث يتغيَّر أسلوب معاملة المعلمين وتبدأ مواهبه تظهر، يقول:

"في المدرسة المتوسطة الثانية حدث انفراج حقيقي في البيئة الدراسية، وأهم شيء هو أن أسلوب الضرب البدائي الذي كان بعض معلمينا في المدرسة الشمالية يمارسونه علينا لأتفه الأسباب قد خفَّ كثيرًا، بل يمكن القول إنه تلاشى، ثم إن ميولنا واهتماماتنا وهواياتنا قد بدأت تتفتَّح، فبدأنا نلتحق بجمعيات النشاط اللا منهجي ونستفيد من مقتنيات المكتبة المدرسية... وقد كتبتُ في دفتر يومياتي القديم المتهالك بتاريخ 1387/9/1هـ عندما كنت في السنة الثالثة المتوسطة أن مكتبة المدرسة قد فتحت أبوابها، وأنني قد استعرتُ من المكتبة..." (المصدر السابق).

والكتب التي قرأها هي التي يقرؤها أي طفل في هذه المرحلة، وكان الإنجاز الفعلي في المجال الثقافي هو نشر أول قصة له بعنوان "صدى" في صحيفة الجزيرة، وقد كتب الراوي شيئًا من ذكرياته وتجاربه الأولى في الصحافة والكتابة، وأسماء كثير ممن شجعوه ودعموه في كتاب محمد القشعمي، وأورد نص هذه القصة وعلَّق عليها يقول:

"... قليلون هم الذين أبدوا اهتمامًا بقصتي وشجعوني، وأول وأهم أولئك والدتي التي لم تكن في ذلك الوقت تقرأ وتكتب، لكنها بحدسها وفطرتها وطيبتها اللا محدودة، وبعاطفة الأم، كانت ترى كم أنا مبتهج بنشر هذه القصة، فتبتهج وتشاطرني السعادة، وتبدي إعجابها لمجرد التشجيع..." (القشعمي،2014)

وتبدو الحبكة بعد مرحلة الطفولة مفككة وغير متماسكة، ويبدو انتقال الراوي من حدث إلى آخر غير سلس وفيه كثير من الصعوبة، فبعد أن كان يستعذب الحديث عن مرحلة الطفولة، ويطيل في ذكر أماكن اللهو والهوايات وغيرها، يجد القارئ أنه هنا يكتب بنوع من الاقتضاب، مع أن المرحلة الثانوية أهم من المرحلة المتوسطة؛ ففيها تظهر الميول والتوجهات للتخصص والوظيفة بعد ذلك، ونجد الراوي يعود هنا كذلك إلى دفتر يومياته ليؤرخ لليوم الفاصل في حياته، دخوله المرحلة الثانوية:

"في تجربتي الشخصية، اعتبرتُ أن اليوم الأول لدخولي المرحلة الثانوية مهمًا ويستحق التوثيق؛ فكتبت في دفتر مذكراتي في ذلك اليوم تحت عنوان "أول يوم في الأول ثانوي" بتاريخ 1388/6/29هـ (سبتمبر 1968م) يوم السبت فتحت المدارس أبوابها،

وسأكون مبتهجًا أيما ابتهاج... كانت اهتماماتي الأدبية والصحفية قد بدأت تتشكَّل وكنت أتطلَّع إلى تجاوز السنة الأولى بسرعة لكي أدخل القسم الأدبي... " (المصدر السابق).

ومع ولعه بالصحافة والأدب؛ فإنه يتوجَّه بعد التخرج من الثانوية إلى تخصص الاقتصاد، وينتقل إلى جامعة الملك عبد العزيز بمدينة جدة، ويذكر هنا أسماء عدد كبير من الطلاب والمعلمين الذين شجعوه، والمعلمين الذين أثَّروا به، وفي فصل خاص بالصحافة يجد القارئ أن الراوي يكرر كثيرًا مما أورده سابقًا عن ولعه بالكتابة ومراسلة الصحف منذ المرحلة المتوسطة، وما أورده عن قصته الأولى، لكنه يستكمل بالتقارير التي كان يرسلها، وهي قليلة.

يقول:

"كانت الأنشطة الثقافية والرسمية التي يمكن تغطيتها صحفيًا في الجوف في ذلك الزمان محدودة للغاية، وكانت زيارة أي مسئول أو شخص مشهور للمنطقة تمثل فرصة ذهبية لإجراء مقابلة معه أو الحصول على خبر عن الزيارة... لقد كانت تلك المشاركات الصحفية متواضعة، ولا شك أن بعضها كان يُنشر من قبيل التشجيع أو بسبب نُدرة العاملين في المجال الصحفي" (المصدر السابق).

ويبدو أن الكاتب كان يعدُّ كل فصل منفصلاً عن الآخر، أو أنه كتب هذه السيرة على مدى مدة زمنية طويلة وأوقات متفاوتة، فلمَّا جُمعت في هذا الكتاب، كان هناك كثير من الأجزاء المكررة، وهو بالطبع ليس التكرار المتعارف عليه كسمة أسلوبية، بل هو التكرار الذي يشي بأن كاتبه لم يراجع ما كتب سابقًا، أو أن الملل قد أصابه، أو أنه استعجل طباعة الكتاب ونشره، حيث تزامن نشره مع معرض جدة الدولي للكتاب 2017م.

وكما يفرد فصلاً خاصًا للصحافة، يكون عنوان الفصل اللاحق له "سحر القراءة" ويتكرر ما ورد سابقًا ؛ فيعود إلى بدايات القراءة الأولى في المرحلة المتوسطة، لكنه هنا يؤرخ لمكتبة الثقافة العامة بالجوف، التي شهدت أنواعًا من التطور على مدى السنوات، فأصبح اسمها "دار الجوف للعلوم" وهي جزء من "مركز عبد الرحمن السديري الثقافي" يقول:

"وقد حدث تطورٌ آخر أثناء دراستي في المرحلة المتوسطة... ففي طريقي من وإلى المدرسة المتوسطة الأولى على الدراجة الهوائية، كانت تستوقفني لوحة كُتب عليها (مكتبة الثقافة العامة بالجوف أُسست عام 1385هـ على نفقة عبد الرحمن الأحمد المحمد السديري وأولاده) وُضعت على مبنى صغير... وقد دفعني فضولي ذات يوم إلى دخول المكان في الفترة المباركة لتأسيسها، فاكتشفتُ عامًا جديدًا ورائعًا، إذ وجدتُ كتبًا ومجلات وجرائد، فكانت بالنسبة لي تجربة فريدة استمرت حتى اليوم مع تلك المكتبة التي تطورت، وأصبح اسمها دار الجوف للعلوم، وهي جزء من مؤسسة عبد الرحمن السديري الثقافية الخيرية" (المصدر السابق).

ويذكر بعض مصادِره للحصول على الكتب غير المتوافرة في بيئته الصغيرة أو الممنوعة رقابيًا، ويتعرف للمرة الأولى على روايات نجيب محفوظ، يقول:

"ومن مصادري للحصول على الكتب في تلك الفترة شخص تعرفت عليه بالصدفة اسمه أديب الريماوي الذي أخبرني أنه أحضر معه من الأردن كتبًا كثيرة لاستخدامه الشخصي، وسوف يحضر لي بعض مؤلفات نجيب محفوظ الذي لم أكن قد قرأت أيًا من كتبه بسبب عدم توافرها" (المصدر السابق).

والراوي كما سبق يهتم كثيرًا بالتكوين الثقافي لديه؛ فهو والحالة هذه يريد أن يرسّخ لدى القارئ فكرة أن التخصص بالاقتصاد لم يسلبه ميوله الأدبية والثقافية، مع أن معظم مقالاته بعد عودته من أمريكا كانت في تخصصه الأساس.

وفي الفصلين الأخيرين من الكتاب "هذا ما كان يشغلنا" و "الأمير" يكرر ما سبق أن أورده في بداية الكتاب، وكأن الكتابة هنا مراجعة لما سبق، أو كأنه مجمل وملخص لهذه السيرة؛ فهو يُجْمل ما يريد أن يركز عليه القارئ، أو ما يجب أن يخرج به من هذا الكتاب. وسأورد ما ارتبط بعنوان الفصل فحسب، أي ما كان يشغلهم:

"... كانت هموم الحياة اليومية والجري خلف لقمة العيش، مثلما هي الحال في كل مكان، تتصدَّر اهتمامات الناس، وتأخذ نصيبها الوافي دون أن تلغي الاهتمامات الأخرى التي تتجاوز البقعة الجغرافية الصغيرة التي يعيشون عليها... ولا أعتقد أنني أبالغ حين أقول إن الاهتمامات السياسية لجيل الستينيات الميلادية في الجوف كانت تشبه الاهتمامات الرياضية للأجيال الحالية..." (المصدر السابق).

وفي فصل "الأمير" يعدد معظم إنجازات أمير الجوف عبد الرحمن السديري الذي استمر أميرًا للجوف لثمانية وأربعين عامًا، وهي الإنجازات التي ذكرها وكررها مِرارًا في صفحات عديدة من هذه السيرة منذ طفولته، بل واستشهد بأحد الكتب التي دوَّنت سيرة

وتاريخ ومسيرة هذا الأمير، وهو لم يتعرَّف عليه شخصيًا، مما ذكر:

"لقد سمعت الكثير عن خصال الأمير عبد الرحمن السديري وسجاياه، ومما يؤسفني أنني لم أتعرَّف عليه بشكل شخصي، فقد غادرت الجوف في سن الثامنة عشرة، ورغم اهتماماتي الصحفية، ومراسلتي للصحف من الجوف حين كنت طالبًا أتلقى التعليم في المنطقة، لم يُكتب لي لقاء الأمير ربما تهيبًا مع أنه كان –رحمه الله– شديد التواضع..." (المصدر السابق).

مما سبق يتضح أن الراوي لم يعرف الأمير شخصيًا ولم يلتقِ به أبدًا، وكل ما جاء هنا من أعماله وآثاره عاد فيه الراوي الذي غادر المنطقة في سنوات شبابه الأولى، إلى مراجع عن تاريخ المنطقة، وعن الأمير، ومن أهم هذه الكتب التي ذكرها كتاب "فصل من تاريخ وطن وسيرة رجال– عبد الرحمن بن أحمد السديري أمير منطقة الجوف" الذي تسنى لي الاطلاع عليه ويعد الكتاب بالفعل سيرة غيرية ضخمة، اشترك في كتابتها مجموعة كبيرة من الكتَّاب والباحثين، وكما يقول الدكتور عبد الرحمن الشبيلي الذي كتب تمهيد هذا الكتاب: "قد يتعذر على مراقِب أن يكتب بموضوعية عن إنسان لم يجالسه، أو يعش قريبًا منه، لكن التعمُّق في معرفة سيرته، وقراءة تاريخ أسرته، ومتابعة نشاط مؤسسته الخيرية بالجوف، تتيح التعرُّف على شخصيته، وسماع شيء من شعره، وزيارة معشوقتيه (الجوف والغاط) ... والكتاب الذي يتحدث عن حياة عبد الرحمن السديري لا بدَّ أن يبدأ بنبذة عن تاريخ أسرته العريقة..." (مجموعة من الباحثين، 2016)

ويبدو أن عمل الراوي لاحقًا في مؤسسة الأمير قد جعله يطلِّع على كثير مما كُتب عنه، وفي كل الأحوال، فلديه قَدرٌ كبير من الولاء له. وتبدو الجوف لدى الراوي تتضمَّن الكثير من الدلالات الإيديولوجية والاجتماعية والمواقف من الشخصيات، وسكَّان المنطقة من العرب والحُكَّام من آل السديري، ويورد الكاتب كثيرًا من صور الأمير في مناسبات عديدة مع سكان المنطقة، حيث يشاركهم مناسباتهم وأفراحهم.

ومن الأعمال المهمة التي تُذكر للأمير عبد الرحمن السديري، وكان سبّاقًا إليها في هذه البيئة الصغيرة: إنشاء دار الجوف للعلوم التي تحوَّلت إلى مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيرية، وقد سبقت الإشارة إليها كثيرًا، وقد أُنشئت مكتبتان تابعتان لها، كما صدرت عن المؤسسة مجلتان هما "الجوبة" و "أدوماتو" كما تقدِّم الأنشطة الثقافية المنبرية، كما أصدرت المؤسسة الكتب التي تتناول قضايا مرتبطة بالمنطقة، وهذه السِيرة التي ندرسها صادرة عن هذه المؤسسة. (المصدر السابق). وتوطين البادية، وهذا المشروع من أهم المشاريع التنموية التي بدأت منذ توحيد الملك عبد العزيز للسعودية، والغاية منه جذب أبناء البادية للاستقرار وزيادة نسبة التحضر في السعودية، يقول:

"وقد لاحظ الأمير عبد الرحمن السديري معاناة البادية في بعض سنوات القحط، فعمل جاهدًا على إقناعهم بالاستيطان في العديد من المواقع في وادي السرحان وبعض المراكز الأخرى... وخاطب وزارة الداخلية وغيرها من الأجهزة الحكومية مقترحًا مشروعات تنموية للمنطقة تتضمن توطين البادية ومساعدتهم في إقامة مشروعات زراعية تؤدي إلى استقرارهم" (المصدر السابق)285

وقد تحدَّث الراوي عن مشروع وادي السرحان لتوطين البدو بالجوف، وهو من المشاريع المهمة التي وقف خلفها الأمير عبد الرحمن السديري، وأفاض في ذلك الدكتور خالد الدريعان أحد مثقفي المنطقة، يقول:

"كان من أهداف مشروعي وادي السرحان وحماية المراعي هو توطين بدو الشرارات وجماعات أخرى، حيث قام الأمير عبد الرحمن بن أحمد السديري بعرض أمر توطين الشرارات على الجهات المختصة، فصدرت الموافقة على توطين القبيلة في عام 1962م" (المرجع السابق)

إن الراوي ارتبط بالمكان، ومن خلال ارتباطهما تكونا، فالحميد هو ابن الجوف، ذلك الطفل والشاب الصغير، إنه يكتب عن علاقته بها بعد أن جاوز الستين، وقد غادرها في سنوات شبابه الأولى، لكنها لم تغادره. فإذا كان الحديث عن التطوير والتحديث، راح يثبت أن الجوف كانت سبَّاقة إليه، ولا شيء أدل على ذلك من تعليم المرأة الذي شهد معارضة في بعض مناطق المملكة، فيذكر أن الأمير بذل في ذلك جهودًا مشكورة، وقد اتخذ في ذلك خُطة مبتكرة لإقناع الناس بتعليم بناتهم:

"كان الأمير عبد الرحمن السديري مؤيدًا لتعليم المرأة، لكنه بالطبع كان يدرك حساسية الموضوع آنذاك فوجد أن أفضل طريقة لإقناع الناس بتعليم بناتهم هي أن تنخرط ابنتاه حصة ولطيفة في العملية التعليمية. وقد تم افتتاح أول مدرسة للبنات في سكاكا عام 1382هـ" (المصدر السابق).

وقد اعتمد الراوي في ذلك على ما كتبته لطيفة عبد الرحمن السديري عن تعليم البنات في ذلك الوقت، وقد شجَّع الأمير عبد الرحمن على مشاركة المرأة في كل المجالات، ولم يعترض على قيادة المرأة للسيارة في ذلك الزمن.

يكثر في هذا الجزء ما يُعرف بالتأليف الزمني ، وهو "أن يقوم الراوي على جَمْع أزمنة متباعدة يضمها الراوي بموجب صِلات مكانية أو غرضية أو غيرها" (القاضي، المرجع السابق) وهذا ما يفعله الراوي هنا وقد ينص على ذلك؛ فيربط بين هذه الأزمنة أحيانًا بقوله عندما يأتي بالماضي "عندما تعود بي الذاكرة" وعندما يقفز إلى المستقبل "وهو ما سوف آتي عليه في موضع آخر من هذا الكتاب" وقد لا يذكر أحد هذه الأقوال. ويأتي التأليف الزمني هنا على شكل الخلاصة سريعة الوتيرة. وتبدأ عدد صفحات الفصول الأخيرة بالتناقص؛ وكأنه يريد أن ينهي الكتاب سريعًا أو أن ذخيرته من الذاكرة قد بدأت تتلاشى، وهذا يثبت ما سبق أن ذهبت إليه في أنه اعتمد في الأجزاء الأولى على مذكراته المدوَّنة، وربما هي التي شجَّعته على كتابة هذه السيرة. وينهي الحميد المشوار بثبْت للمناصب والوظائف التي تقلَّدها، كما ألحق ذلك بصوره مع الأمراء والسفراء الذين التقى بهم خلال عمله.

وختم السيرة بنصائح حياتية للشباب. ولا يخفى أن الراوي استخدم تقنية الحذف، حيث توقّف في الحقيقة عند المرحلة الثانوية، وأسقط معظم سنوات عمره منذ خرج من الجوف إلى أمريكا، وأستخدم تقنية التلخيص، حيث لخَّص كل السنوات اللاحقة في عدد محدود من الصفحات نهاية السيرة، أسماها "بقية المشوار" (المصدر السابق)

لم تكن هذه السيرة خاصة بالكاتب/ الراوي نفسه فحسب، فقد افتقدت لكثير من التفاصيل الشخصية الخاصة بالكاتب، التي اعتذر عن تدوينها كما سبق في الصفحات الأولى من الكتاب، ومن يقرأ في كتب السيرة الذاتية العربية فحسب، سيجد كثيرًا من الاعترافات أحيانًا وبعض من الأحداث الخاصة جدًا، ويتساءل القارئ عن دور المرأة في حياة عبد الواحد الحميد، فالمرأة اختفت تمامًا من هذه السيرة، إلا من شذرتين فحسب، عندما ذكر أن أمه كانت تشجعه على الكتابة وذكره لأختيه اللتين شاركتاه الدراسة في المدرسة نفسها، بل إن الحميد لا يعدُّ ما كتب سيرة ذاتية، يقول: إنني لا أعدّ ما كتبت سيرة ذاتية بالمعنى الحرفي، والكتاب ليس نصًا أدبيًا ولم أكتبه في سياق ما يسمى بأدب السيرة الذاتية" (الحميد، 2018) فالحميد ينكر حتى أدبية النص؛ ربما هو متخوِّف كدبلوماسي مما يمكن أن يرد في هذه السيرة من تفاصيل خاصة به، والكتاب كما أسلفتُ وكما يحب الكاتب له أن يكون، سيرة وتأريخ جيل ومرحلة، ولكن هذا لا ينفي سيريته الذاتية بل يثبتها.

إن الكتابة السيرية هي أحد أشكال المراجعة للواقع والمجتمع والحياة بشكل عام، مراجعة للقيم والتقاليد والمسلَّمات، وقد تكون محاولة للاختلاف والتمرد كما في "رحلة العُمر" أو محاولة للتصحيح والتقويم والتطوير كما في "سنوات الجوف" للحميد. فلم يستطع محمد عبد الحميد مِرداد أن يأتلف مع المكان (مكة) واستمرت محاولات الهروب في بحث حثيث عن الذات ومحاولة إظهارها، أما الحميد فقد اكتشف ذاته عندما اكتشف مواهبه، ووجد العون والمساعدة ممن حوله من أساتذة آمنوا بموهبته ودفعوا به إلى الأمام، وعانى مِرداد أشكالاً متعددة من المنع والقهر والإقصاء، إلى أن رحل أخيرًا إلى أقصى الشرق حيث لا يعرفه أحد علَّه يجد من يعترف به. بينما كان خروج الحميد من الجوف لأمريكا للاستزادة من العلم. وتعد سيرة مِرداد أكثر التصاقًا بحياة كاتبها من سيرة الحميد الذي كان يختفي وراء الشخصيات والأحداث وتاريخ الجوف، ويطل برأسه بين حين وآخر ليعلق على كل ذلك.

المصادر والمراجع

أولاً- المصادر

الحميد، ع. (2017) سنوات الجوف-ذكريات جيل، السعودية: مركز عبد الرحمن السديري الثقافي.

مرداد، م. (1410هـ) رحلة العمر، السعودية: نادي مكة الثقافي الأدبي.

ثانيًا- المراجع

1-الكتب:

أبكر، ع. (2007) صدى الأيام ماذا في حارات مكة، السعودية: مكتبة إحياء التراث الإسلامي. ص160.

أمين، ب. (2002) الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية، ط11 لبنان: دار العلم للملايين. ص 141، 143، 144، 154.

با طرفي، خ. (2012) عبد الله عمر خياط يتذكَّر لمحات من التاريخ الحديث، ط3 السعودية: مطابع سحر. ص291-292.

الحارثي، خ. (1437هـ) مكة المكرمة في الرواية السعودية، لبنان: دار الانتشار العربي، والسعودية: نادي مكة الثقافي الأدبي. ص 174.

الحكمي، ع. (2015) السيرة الذاتية عند أدباء المملكة العربية السعودية في مرحلة الطفرة (1390-1418هـ)، عمان: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع. ص188، 219-220.

الرويلي، م والبازعي، س. (2017) دليل الناقد الأدبي، ط6، المغرب: المركز الثقافي العربي، ص120، 121.

السريحي، س. (2011) غواية الاسم- سيرة القهوة وخطاب التحريم، المغرب: المركز الثقافي العربي، والسعودية: النادي الأدبي بالرياض. ص69.

عبد الرحمن، ع. (2008) لعبة الترميز– دراسات في الرموز واللغة والأسطورة، لبنان: دار الانتشار العربي. ص99.
القاضي، م وآخرون. (2010) معجم السرديات، تونس: دار محمد علي للنشر. ص62، 108.
القشعمي، م. (2014) بداياتهم مع الكتابة، السعودية دار المفردات. ص218–224.
لوجون، ف. (1994) السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، المغرب: المركز الثقافي العربي. ص8، 13.
ماي، ج. (2011) السيرة الذاتية، ترجمة: محمد القاضي وعبد الله صولة، السعودية: نادي أبها الأدبي. ص30–34، 109.
مجموعة من الباحثين (2016) فصل من تاريخ وطن وسِيرة رجال: عبد الرحمن بن أحمد السديري أمير منطقة الجوف، ط2 السعودية: مركز عبد الرحمن السديري الثقافي. ص351،9.
مجموعة من الدارسين. (2001) موسوعة الأدب العربي السعودي الحديث– نصوص مختارة ودراسات، السعودية: دار المفردات. ص17.

2– الدوريات:

السريحي، ص. من على كتف أمي أرى الدنيا– قراءة في كتاب "رحلة العمر" لعبد الحميد مرداد ،مجلة "علامات في النقد الأدبي" السيرة الذاتية في الأدب العربي السعودي، ج2، السعودية: النادي الأدبي الثقافي بجدة، مج17 ج66، شعبان 1429هـ/أغسطس 2008م، ص389–390
الغامدي، ص. السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم– نحو تأطير جنس أدبي، مجلة "علامات في النقد الأدبي" السعودية: النادي الأدبي الثقافي بجدة مج4، ج14، رجب/1415هـ الموافق ديسمبر/1994م.

3– المواقع:

الرويشد، م. الأول من رجب– سعوديون يحتفلون بيوم مولد جيل الطيبين صحيفة الحياة، 18 مارس/2018م http://www.alhayat.com/article/922663/ تاريخ دخول الموقع الاثنين 9من ذي الحجة/ 1439هـ الموافق 20 أغسطس/2018م.

4– المحادثات:

محادثة هاتفية مع الدكتور عبد الواحد الحميد بتاريخ 21ذو القعدة/1439هـ الموافق 3 أغسطس/ 2018م.
محادثة هاتفية مع الكاتب والقاص عبد الرحمن الدَّرعان بتاريخ 20 ذو الحجة/1439هـ الموافق 31 أغسطس/2018م.

Biography of generations and history of a stage Between the Novels; Rihlat Alomr "trip of a lifetime" by Mohamed Abdel-Hamid Mirdad, and "Sanawat AlJouf""Al-Jawf Years" by Abdel-Wahid Al-Hamayed, a study in content and style

Kwthar Mahamad Algadi *

ABSTRACT

The Biography is one of the most interesting and attractive types of self-literature. It has taken great strides forward; there have been many attempts to write it since the early *20*th century in modern Arabic literature, and its artistic structure has varied. For example, Al-Ayyam's biography of Taha Hussein in all three parts is very different from Ahmad Amin's (Hayati) "My Life"; as the former has written his biography in an interesting Story Template. He narrated it using the absent pronoun that suited the narrator who is absent by Blindness and Isolation of people. although Ahmed Amin was influenced by Taha Hussein, his biography was more concerned with places, people and history .In the modern Arabic literature in Saudi Arabia, it has been noticed recently, the interest of Males & Female writers in this type of writing, and issued a lot of biographies, some recited on the diary and memoirs, and others hid behind the art of correspondence, Some of which are fragmented in many works by the author himself ...etc. I have chosen here two biographies for two writers which contain many similarities, Rihlat Alomr "trip of a lifetime" by Mohamed Abdel-Hamid Mirdad, the Makki writer and traveler, published more than a quarter of a century ago, did not receive a full study. And The biography of Dr. Abdul Wahid Al-Hamayed, " Sanawat AlJouf "Al-Jawf Years," is the latest biography published by the end of 2017. The study examined the content and style of these two books with a reading looking for the characteristics of the teller character that hides behind many personalities and many historical events, but it brought out to the reader the history of the stage and influential personalities and a few details of the life of the authors.

Keywords: prolepsis, Autobiographical Pact, Alternation of Generations, Individuation, Cognitive Dimension, - Retrospection, Anisochrony, Direct Speech Homodiegetic Narrator, Narrative Temporality, Temporal Syllepsis, Summary.

* Umm Al-Qura University, K.S.A. Received on 19/9/2018 and Accepted for Publication on 28/3/2019.